أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

عبد الحليم الجندي

دار المعارف

التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

تأليف الأستاذ

عبد الحليم الجندي

الكتاب الثاني والثلاثون

١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الامام الأعظم لأهل الاسلام .

واذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثا ضخما فى تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأى وحده جحفلا لجبا . فليس كهذا الامام مصداقا لهذا الكلام .

فالى الجيل الذى يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالى للحرية والشجاعة والكفاح .

ان أبصارنا فى أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه الى المستقبل والى الماضى معا ، لأن الماضى مركز الثقل الذى يحفظ توازننا ، فلا نقبل على المجهول الا وفى أيدينا قدر كاف من المعلوم ، و لانرد حياض الغير الا اذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا ، واذا كنا الى اليوم لم نغترف من كنوزنا الزاخرة الا حفنات ، فلنرجع البصر كرات الى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج اذا تحققت المناعة بانهاض القوى الذاتية للجسم الحى .

لنقل للمترددين مقالة البحارة فى سفينة بالمحيط الأطلسى للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطىء البرازيل ، فرغ منهـا الماء العذب فصاحوا فى

طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء ، وكان الجواب دائما .. « ألقوا دلوكم حيث أنتم » حتى اذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذبا فراتا لذة للشاربين ، اذ كانوا قبالة شاطىء نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب فى صميم المحيط وهم لا يشعرون .

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارىء فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها الا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أو فتى كسيف الاسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الاسلام من ردة المرتدين فكانت يده فى حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها .

واذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقعه الستين التى أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهده ، فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الاسلام والامام الأعظم للأئمة وللمشترعين ، فى كل نبضة من نبضات قلبه هداية ، بالعلم وبالقدوة ، الى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جلت للناس عمله فى بناية الحضارة الاسلامية وحياطتها بما أشاعه فى كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير فى الحياة الدنيا اذا ازينت لهم بمصباح الفقيه .

ولما تعارض الفكر والسلطان ، أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هى العليا .

ألا ان لنا فى الامام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسيا فى التضحيات ، ونحن فى مفترق الطرق . فلنقتد بهداه ، ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب

الحضارة الغربية التى أوشكت أن تعلن افلاسها فى الحربين الأخيرتين لخلوها من عنصر الروح .

لنتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .

لقــد اعتز الاسلام بأسبابه ، عندما اســتمسك أبناؤه بآدابه ، فلما ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارىء هذا المثل للرجل العظيم الذى أجــرينا ذكره عــلى الصفحات التالية .

الباب الأول

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام
التى لم ينفرط عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا
كالفجر الطالع واملأوا آفاق الورى بالنور »

شريه

أقبل السيد فى تؤدة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السمت عظيم الهامة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة ، فى وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت اذا مشى يمنة أو يسرة ، يضوع المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشيع الأرج اذا خرج من داره فتعرف أنه القادم اليك قبل أن تراه .

فاذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباسا عليه بزة فاخرة تباهى بذوق صاحبها فىقماشها وطرازها ، كأن قماشاتخير لنفسه أحسن مالديه، فاجتمع ذوق المشترى وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تعلوه قلنسوة طويلة سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، فى زمن كانت فيه ثمانية أرطال سمن بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم بل الكبش بدرهم .. !

ومن جبة سنجاب الى جبة ثعلب يصلى فيها ، الى جبة فنك « نوع من جراء الثعلب التركى » فى زمن لم يك يلبس الفنك فيه الا الأقيال والدهاقين والسروات ، اذا ألفيت فيه أو فيما قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكلة ابن عباس : ابن عم النبى ، ونائب أمير المؤمنين على ، والجد الأعلى لهرون الرشيد .

هذا السيد الذى ينم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبئك مخبره عن مقام فى قمة الملأ الأعلى من المخلصين ، مجلس هو الوقار بعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة فى عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعة ، اذا سمع اللغو أعرض عنه ، هيوبا لا يتكلم الا جوابا ، حتى اذا دعت الى الحديث دواعيه افترت شفتاه عن ثنيتين ناتئتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل ، كأن ملكا من الملائكة يوحى اليه ! مضرب المثل فى وفائه ونداه ، وبسطه وايناسه ، وحدبه على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة ، رزقه ربه رزقا حسنا فجعله كله زلفى لله وقربى ، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية فى الدنيا وفى الدين .

فمن ذلك الذى هو كل ذلك .. ؟

انه النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة . الذى يتبين عقله من منطقه ومشيته ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر تتردد عباراته الى جوار أساطين المسجد الجامع فى الكوفة فتتردد أصداؤها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى ببيت المقدس وفى البيت الحرام بمكة ، وفى جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظائم ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فاذا ذهب الى المسجد انجفل الحضور اليه يلتمسون وقع الدر من فيه ، يطالعهم كل آن بجلائل العلم الذى ينحنى له الأفذاذ من العلماء . ولو أتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا ــ بعد رسول الله وبضعة من صحبه ــ هو أخلد الرجال فى تاريخ الاسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الاسلامية حضارة يتحصل فى كلمة يسيرة المبنى كبيرة المعنى هى : « أرجح الاقوال من مذهب أبى حنيفة » الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان ، وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى التجارة وفى الملك ، وفى التصرفات وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شىء يسموان باسمه فى معارج الخلود . يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التقاليد وطغيان التعصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن . وينشىء مدرسة الرأى فى الاسلام لتكون أم الفقه الاسلامى ومنبعه على مر الدهور .

***

كان فتى طوالا فيه سمرة منحدرة اليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده فى الأفغان ــ فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تيم ، فهو باسمه سمى ملك من الملوك فى العراق « النعمان بن المنذر » وهو بمولده مولى من الموالى ، لم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وانما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا فى ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة

كأتون مستعر ، وكان أمير العراق فى طفولة النعمان الحجــاج بن يوسف الثقفى ، رجلا ما يزال اسمه يجرى فى التاريخ العــربى بما يجرى به اسم نيرون فى التاريخ الغربى ، فالنعمان لم يسلخ فى بواكير حياته ليلة واحدة ولا نهارا دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشبة براثنه فى أعناق جيرته وعشيرته . يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم فى العراق عامة والكوفة خاصة ــ وحمل الطاغية فى عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل فى سنة ٩٥ شهيدا « مات .. ما على ظهر الأرض رجــل الا ويحتاج الى علمه » هو سعيد ابن جبير . ومن بعد ذلك بعام فى سنة ٩٦ مات أستاذ العراق ابراهيم النخعى مختفيا عن عيونه ... !

ولما يفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبــار الأرض قد قبضه اليــه جبار الســـماء فرحل الى الدار الآخــرة مخلفا فى الدار الفانيــة أحاديث مآســيه .

لاحت على الحدث الناشىء مخائل النجابة وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضى الكوفة وزعيم محدثيها فى عصره الامام الشعبى . فلما مر به يوما دعاه قائلا : الى من تختلف !؟ قال : « أختلف الى السوق » وسمى له أستاذه فى السوق . قال الشعبى « لم أعن الاختلاف الى السوق بل عنيت الاختلاف الى العلمــاء » قال « انى قليل الاختــلاف اليهم » قال الشعبى « عليك بالنظر فى العلم ، ومجالسة العلماء ، فانى أرى فيك يقظة وحركة » .
ووقع فى قلبه من قوله وترك الاختلاف الى السوق وأخذ فى العلم منذ حداثته الباكرة .

بدأ النعمــان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيــد ، والجدال فى العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه ، والجبر والاختيــار ، وان شئت فقــل انه علم التشريح الفــكرى للمسائل المسلمة لانكارها أو اقرارها بالدليل العقلى .

وكان العراق اقليما مستوفزا يدفع كل شىء فيه الى شبوب الخواطر . وفى الطبيعة البشرية اتجاه غريزى للدفاع عن النفس يدفعها الى الثورة على العسف ، مواجهة ان استطاعت ، ومن حواليه اذا هى لم تستطع ، فتفــرغ

شحنتها من الحماسة فى اتجاهات يظهر بادى الرأى أنها لا تمت بسبب الى الحرب المشبوبة على الطغيان ، لكنها فى الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار

ولقد يظهر من ذلك أن الاقبال على الجدال انما هو فى الواقع اقبال على النضال ، اقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته ، لم تمسه همزات الفتن ولم يفض فى الخلافات العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلفى بأن يقارب السلطان ، وانما نزل الى معارك العلم واستقام على طريقته طيلة حياته فى بلد كانت السياسة فيه هى الخبز اليومى يطعمه كل كوفى .

وسنرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح فى كهولته يصـــدع برأيه فى شجاعة دونها شجاعة السيوف

قالوا رأى النعمان فى حداثته من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة وامرأة وقيل خمسة وامرأتين ـــ منهم أنس بن مالك ـــ وانه سمع منه حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث «الدال على الخير كفاعله» وحديث أن الله تعالى يحب اغاثة اللهفان . وقالوا انه لم يسمع من الصحابة أحدا ، وانما تمحضت حداثته لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه الى الأسفار فى سبيل العلم ، فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ فى « الكلام » مبلغا يشار اليه فيه بالبنـــان أو كما قال : « كنت أعطيت جدلا فى الكلام ، وأصحاب الأهواء فى البصرة كثير ، فدخلتها نيفا وعشرين مرة وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظنا أن علم الكلام أجل العلوم » . لكن ما ركب فيه من عقل عملى كان حقيقا أن يغير مجراه وأن يهديه الى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ، وخليق بمثله أن ينصرف الى ما ينفع الناس فيهجر المتكلمين الى الفقهاء أو كما قال « فلمـــا مضى مدة من عمرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا مجادلين . وخاضوا فى علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظـــروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيماء الصـــالحين قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم .. »

كان فتى ذواقة يختار من كل شيء أحسنه . وما دام قد تخير الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس . وليس اذن الا الحلقة المجاورة لأنهـا أكبر الحلق ، وأستاذها أكبر الأساتذة : أبو اسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفى الأشعرى الذى يعقد جلساته فى المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال « تعلم العلم » قال « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط فى سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها فى الغداة فيخطىء الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجـدل حتى ليحمر وجه حماد لكن حمادا يدرك مواهب تلميذه من عمق أسـئلته ومن صلته بالله . قام يوما من مجلسه فقال حماد لجاره « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه .. » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد « كنت أكثر السؤال فربمـا تبرم منى . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبى وضاق صدرى . » .

لم يلبث الا قليلا حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بازائه . وطفقا يجلسان لنفسـيهما هذه الجلسة عشر سـنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفل زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى أن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طـويلة عن الـكوفة الى أى الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس الى قلب الجد هو الحفيد . لكنه أجابه : الى أبى حنيفة ولو أمكننى أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه فى نحو الثلاثين من عمره أنه أوتى حظا من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتى الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوما بالعشى تنازعه نفسـه طلب الرياسة ، ويمم شطر المسـجد وأوى الى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى . فلم يكد يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد فى حلقته ، فهاجته الذكر . ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأسـتاذ

العظيم الذى قال عنه ابراهيم النخعى اذ سئل عمن خلف بعده للنـــاس انه خلف حمادا للناس ، فكيف يترك النعمان حمادا ؟

كان حماد آية فى الزهد والورع يفطر كل ليلة فى شهر رمضان خمسين انسانا فاذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوبا ثوبا ..

وانصرف الفتى كاسف البال منكسرا ولكنه كان منتصرا اذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته فى دأب وتعمق وحماســة زادته بسطة فى العلم وسعة فى الفهم . حتى اذا نعى الى حماد بعض أهله بالبصرة عن مالا لا وارث له دونه ، رحل الى البصرة شهران وأناب أبا حنيفة فى أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ ــ الصــغير ــ يستفتونه فى أشــياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللاسلام : تلك أنه دون اجاباته ليعرضها على أستاذه اثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منهـــا أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور الاسلامى يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضغطا اذ منعه الحياء العلمى أن يعتد بأنه أصاب ضعفى ما أخطأ ، وتعاقب عليــه الجديدان فى حلقة حماد ، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار فى العلم وفى الدين ، واشتملت عليه عناية الله تتعهده تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر ، ودار الفلك دورات وانسلخت سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوما ولا بعض يوم ، بل ان كثيرا من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفا من الليل .

كان يسهر مع جماعة من أصحابه فى دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فاذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة « يالك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، ان شر الديكة ما صاح أول الليل »

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه ، وبلغ به استقلاله ، ما بلغ باستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد فى مخالفته له حرجا . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حمادا : انى على دابة سيور وقد غابت الشـــمس

ولست على الوضوء . قال له : تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فاذا خشيت ذلك فتيمم وصل وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفى الوقت سعة ، طلبا للكمال بالطهارة الأصلية .

وهى أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ نضجه العلمى ، واستوى فى سن الأربعين ــ سن الرسل ــ فأضحى يستطيع أن يؤدى رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .

ففى سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد الى بارئها واجتمع الناس الى ابنه اسماعيل ، وكان أغلب علم اسماعيل فى التاريخ والأدب فلم يلق الناس عنده كبير غناء فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحتملونه وان لم يكن فارها فى الفقه . لأنه لقى المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجا فجلس الناس الى أبى بكر النهشلى فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، وخلى بين المجلس وبين أبى حنيفة ، فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم فى كل الأبواب نفاذا وعلما بارعا فلزموه وتركوا سواه .

وجاء اسماعيل بن حماد نفسه واخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد ، ولم يزل الناس يختلفون اليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاة اليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علوا وغدت حلقته أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها فى الجواب وانصرفت وجوه الناس اليه وأكرمه الحكام والأشراف ، فقوى ذلك بالعلم الواسع والجدة وأسعدته المقادير . وكثر حساده .

وظلت فى نفسه ذكريات حماد يرددها مشيدا بنداه على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول « انى لأعود لحماد مع أبوى » . بل انه ليخلد ذكراه فى نفسه وفى داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم اسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه اسماعيل .

ذلك حماد أستاذه فى الفقه ، وأبوه فى الفكر ، وأولئك آباء حماد الفكريون :

كان حماد تلميذا لعلية الأستاذين . جرى اسمه فى التاريخ على أنه راوية ابراهيم النخعى وناهيك بابراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبى عندما نعى اليه « هلك الرجل .. انه نشأ فى أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا الى فقه أهل بيته فمن كان مثله .. » وقال : . دفنتم أفقه الناس . قيل ومن الحسن « الحسن البصرى » . قال « أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل الكوفة وأهل الحجاز » . فلقد كان فى الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين ــ أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذى كان الصحابة يستفتونه والذى قال عنه ابن عباس اذ مات .. « مات ربانى العلم » كما أخذ عن ابن أخى علقمة الأسود بن يزيد النخعى وهذان النخعيان أخذا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين الى الحبشة والمدينة ، وقرين أبى بكر وعثمان وعمر وعلى ، وصاحب النبى الذى قال فيه « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذى كان أخا فى الفكر والرأى لعمر ابن الخطاب .

قال عنه أبو موسى الأشعرى « لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم » . ولما أرسله الى أهل الكوفة بعث اليهم يقول : « انى بعثت اليكم عمار ابن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم فى الشهر ! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته ، وجرى فى خلده وفى منهاجه نهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة ، اذا أبيح لنا أن نستعير هذا التعبير العربى عن أرسطو

... وبهذا تستبين صلة أبى حنيفة بالصحابة المقربين وبالاسلام عندما نشأ الاسلام .

سئل الرشيد عن أبى حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له فى احدى جوامع الكلم قال : « .. قال تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد كان علمى به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطق فى دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذارا ولا ثرثارا .. ان سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، والا قاس مستغنيا عن الناس ، لا يميل الى طمع ، ولا يذكر الناس الا بخير .. » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرة عينه فى الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلى ويبكى ويدعو ربه قائلا : « رب ارحمنى يوم يبعث عبادك ، وقنى عذابك ، واغفر ذنوبى يوم يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن فى رمضان ستين ختمة ، ختمة فى بياض النهار وختمة فى سواد الليل ، ولطالما ذاعت فى الناس أحاديث تقواه ، فقيل كان يقرأ القرآن فى ركعة واحدة أو ركعتين فى الليل ، وقيل انه كان يصلى العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاما .

سئل عنه جار له شيعى فقال : « لا يمنعنى خلافى اياه أن أقول فيه الحق انه لجارى منذ أربعين سنة ما بينى وبينه الا حائط ، ما كان يصبح كل ليلة الا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمى الوتد ، روى مسعر بن كدام أنه أتاه فى مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة الا بوضوء العشاء الآخرة .

كان اذا أراد أن يصلى من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثرا أن يسجد لله وهو فى زينته ، ولو كان مستخفيا فى الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسماية درهم يلبسه فى بعض الأحايين اذ ينزع لباسه الذى يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم الى الصلاة .

فقيل له انما يلبس الناس هذا اللباس اذا لقوا سلطانا أو اجتمعوا فى مجمع عظيم فقال : التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسماية درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء اذ هو لم يعلمه من الكتاب الا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدى . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه اليك تعظيما للقرآن » .

***

كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفى جوار داره اسكاف يحيى الليل منتشيا بلذاذات الشراب يعمل طول النهار حتى اذا جن الليل حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها فاذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه ، بشعر الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأنى لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتى فى آل عمرو
أجرر فى المجامع كل يوم فيا لله مظلمتى وصبرى

وذات مساء فقد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له ان العسس اقتادوه الى السجن منذ ليال ، فصلى صلاة الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد الى دار الأمير — عيسى بن موسى — يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة الى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو الى داره والاسكاف الى جواره ، قال لصاحبه وهو يحاوره : يا فتى : هل أضعناك ؟ فأجاب قائلا : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا .

كان ذلك الصنيع لفتة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيها من فقهاء الكوفة .

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة فى طلب العفو عن سكير . فالجواب فى السؤال : انه رجل الفقه الذى لا يتحرك فى قوالب من الجبس ، أو فى مقامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحى

الذى لا يضيع جاره . فهدى نفسا كانت ترتع فى الفساد . وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية .

وقديما صنع مثله سعد بن أبى وقاص فاتح العراق فى صقع قريب من أصقاع العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابى الخمر فحبسه سعد وجىء به ليقام عليه الحد .. فلما التقى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحمائم .

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا

فقال لامرأة سعد أطلقينى ولك — والله — ان سلمنى الله أن أرجع حتى أضع رجلى فى القيد فقبلت السيدة عهده وحلت قيده . فوثب على البلقاء ، فرس الأمير ، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وخلب لب القائد ، حتى خالوه ملكا من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه . فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة باسلامه نفسه فى سبيل الله .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير : « كنت أشربها اذ يقام على الحد وأطهر منها فأما اذ بهرجتنى — أهدرتنى باسقاط الحد — فوالله لا أشربها أبدا » .

كان أبو حنيفة اذا جمع المال تسابقت كفاه فى تفريقه .. ذلك تلميذ يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة وهذا فقيه فى أسوأ حال . ان مال أبى حنيفة إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال ، واذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها واذا اكتسى ثوبا جديدا فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء .

أصابت رجلا من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أجدب الفناء وصفر الأناء فمس كبده من ذلك كبد . وخرج على عزم السؤال . وقصد الى مجلس أبى حنيفة حيث جلس مليا تقيسه الحاجة ويقعده الحياء . ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما أخفى ، وعاد الى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ فى وجهه أشياء تجرى دلائلها

بين قسماته ، فاتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة فى كمه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئا هو لك » . ورجع مسرعا لئلا يرى ذل الأخذ فى وجهه ، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدتها خشية أن تكون صدقة ذمى — فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس فى تلك الأيام بالأعطيات — ولكن زوجته آهابت به « حل عقدتها لعل الله يحل عقدتنا » .. فلما حلها قرأ كلمة أبى حنيفة « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة اليك من وجه حلال فليفرغ بالك .. »

وحبس ابراهيم بن عيينه — أخو سفيان بن عيينه الفقيه — على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتتابا . فلما صاروا الى أبى حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاءه رجل فقال ان على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر عنى ، ويؤخرنى بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هى له أبرأته منها ، قال الذى عليه الدين : لا حاجة لى فيها : قال أبو حنيفة « ليست الحاجة لك ، وانما الحاجة لى قضيت » .

تلك صدقات ونفحات فى المناسبات . لكن العطاء كان يجرى جريان الزمان فى كل الأيام ، اذ يأمر ولده حمادا بأن يشترى فى كل يوم بعشرة دراهم خبزا يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف الى بابه ، وكان يجرى على الكثير من أصحابه جراية فى كل شهر عدا ما كان يواسيهم به فى عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين . لا يخاف عيلة ، ولا يستبقى لداره ولا لأهله الا قدر نفقتهم والباقى كله طعام للبائس والمعتر .. وفى ذلك يقول « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة الا أخرجته وانما أمسكها لقول على رضى الله عنه، أربعة آلاف فمادونها نفقة ، ولولا أنى أخاف أن ألجأ الى هؤلاء ما تركت منها درهما واحدا »

وسترى كيف كان ثراؤه عريضا لترى كيف كان سخاؤه عجيبا ؛ بل لترى كيف كان ادباره عن الدنيا مصدرا للقوة فى ذاته وأثرا لها فى نفس

الوقت ، كالقوى تولد القوى فتتولد منها ، وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم فى حياته وبعد مماته فبلغ فى الدنيا وفى الآخرة ما شاء بل ما شاء له السماء .

ثم انك لترى الأريحية كلها اذ يهدى اليه : أهدى اليه منديل قيمتـه ثلاثة دراهم فعوض المهدى قطعة خز قيمتها خمسون درهما . وجاءته هدية من الفاكهة فبعث الى المهدى متاعا مرتفعا كثير القيمة .

وأهدى اليه يوما ألف نعل ففرقها على اخوانه ، ورؤى بعد ذلك بيومين يشترى لولده نعلا ... فلما سئل فى ذلك قال « ان مذهبى فى الهدايا تقويمها بالغة ما بلغت . والمكافأة بمثلها أومثل ضعفها ، وتفريق الهدية بين اخوانى . لما قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا أهـدى الى الرجل فجلساؤه شركاؤه ، واخوانى جلسائى فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبى لهم ... وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى : « خذ العفـو وأمر بالعرف » ولما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويجيب الدعوة . وأرى المكافأة بأحسن منها لقـوله تعالى « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » ولقوله تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » .

وأهدى اليه مرة فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى اليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت اليك . قال « لا تقـل هذا فان الفضـل للسابق ، ألم تسمع الى ما حدثنى به الهيثم عن أبى صالح يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال : من صنع اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئونه به فأثنوا عليه .. » .

بلى .. فليسعد النطق ان لم تسعد الحال .. !

رأى على أحد جلسائه سنجابا فلماهم بالخروج قال له : ناولنى هـذا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صـاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب: سبحان الله أبيعه لك ! هو لك هبـة منى وتذكرة . قال الاستاذ ان بعته منى بقيمته والا فلا حاجة لى فى الهبة ، فان بعته منى بقيمته كان أعجب الى وأفعل

ذلك لأنى محتاج اليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرا بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل الى الظفر بحملة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم وبالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه . وقام الى داره فتبعه الرجل يشتم ويصيح حتى اذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلا « هذه دارى أريد الدخول فان كنت تستتم باقى كلامك فأتمه حتى لا يبقى شيء مما عندك حتى لا تخاف الفوت » فاستحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديما كان فتى مهين يسلق بركليس بألسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلقى اليه بالا حتى أوت الشمس الى الغروب فسار الى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه ، فلما دخل بركليس بعث خادما يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته الى داره .

وهذه أمه يبجلها ويدللها ، كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تثق بالفتيا الا اذا جاءتها واردة من الخارج .. !

حلفت يمينا واستفتته فأفتاها ، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت الا أن يفتيها زرعة القاص « الواعظ » فلم يضق ذرعا ، وحملها الى دار زرعة ، وهنالك قال لها صاحب الدار : أأفتيك ومعك فقيه الكوفة .. ! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا .

وأسر أبو حنيفة لزرعة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها الى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة « ثلاثة أميال » ليصليا التراويح خلفه وليستمعوا الى وعظ هذا الزاهد الجليل . وليدعوا الله كما يدعوه « أتعذبنا يارب وفى جوفنا التوحيد .. ! لا أراك تفعل » وهو دعاء يوائم قاعدة أبى حنيفة فى الايمان كما سترى

بعد . فأى رقة تفيض من هذا القلب الكبير . ! وأى دار كتلك الدار تشيع فى أجوائها الزهادة والتبتل والايمان . وأى ذوق كذلك الذى يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود .

ولما أوجعته السياط وهو فى قمة المجد ، معنى بالنكال الذى يصبه عليه ملوك الأرض . لم يكد يفتح فاه بالكلام الى جاره الا ليقول عن أمه « والله ما أوجعتنى السياط قدر ما آلمتنى دموعها » وقالت له أمه : ما خير علم يضيعك هذا الضياع .

قال : ياأماه انهم يريدوننى على الدنيا ، واننى أريد الآخرة واننى أختار عذابهم على عذاب الله .

قال نابغة الأدب الدينى فى فرنسا « بوسويه » فى رثاء عبقرى الفن الحربى « كونديه » « ألا بعدا لأولئك الأبطال الذين لا انسانية فيهم ! انهم قد يستحقون احترامنا واعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معهم ... »

فى أى سلك من الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى الاسلام أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا خلقا وخلقا ، سمتا ونطقا . صلة بالناس وصلة بالله .

كل أولئك ثم هذا نسبه الأدبى الذى يسمو به الى السابقين من أصحاب النبى ، ففيم اذن أجهد الأشياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسبا غير أنساب الموالى ، ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك وأن اسمه أو معناه ورد فى التوراة ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدومه ؟

انما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضا ، وهم سواء فى الحج ، وفى الصلاة وفى الزكاة ، وفى الجنايات ، عين بعين وسن بسن ، والجروح قصاص .

سوى النبى بين نفسه وبين مولاه زيد ، وأمر أسامه بن زيد على الجيش وهو حدث ، وفى الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص

وغيرهم . فلما بويع لأبى بكر قبل الجيش كلم أبوبكر خليفة اليوم أسامة فى عمر خليفة الغد ، ليأذن له فى التخلف ففعل . وظل عمر يناديه كلما لقيه : السلام عليك أيها الأمير ويقول « انى لا أدعوك الا به لأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وأنت على أمير » .

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته .

فى تلك الأمة التى لا تعرف شريفا ومشروفا نهض الموالى بأفدح الأعباء فى الحرب والسياسة وفى العلم والفقه .

وفى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة وظل عكرمة رقيقا حتى مات ابن عباس فباعه ولده على بأربعة آلاف دينار فقال لعلى « بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار » ! فاستقال على من بيعه واعتقه ! .

وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه مولاه نافع ، وأنس بن مالك لا يكاد يذكر الا ومعه مولاه بن سيرين ، وأبو هريرة لا يكاد يذكر الا ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دولة الفقه للموالى فى بعض الأمصار ، كالبصرة حيث كان على رأسهم الحسن البصرى ، وفى مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالى .

وفى سوق الفخار هذه علا صوت السودان فتولى الفتيا بمصر يزيد بن أبى حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة ، وهو الذى تعلم عليه امام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالى ؟ الموالى هم القوم المنتسبون الى بيوت العرب بعقد ولاء ، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا فى الاغلب الاعم من أهل البلاد المفتوحة كمصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يتملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحرارا ، وجرت كلمة الموالى فى اطلاقها على أن تشمل من ليسوا عربا من أهل هذه البلدان لأنهم كانوا يسلمون على أيدى المسلمين ، فمن أسلم على يد مسلم

كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليهم ، ولم يك بدعا أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فيقال ان الفقه بعد موت العبادلة الأربعة ـ أبناء عباس وعمر وعمرو والزبير ـ قد انتقل الى الموالى اذ كان الموالى أهل حضارة رفيعة لم يمسخها الغزو ، لأنه لم يك غزوا بربريا ، وانما كان غزوا فكريا ، فتح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأنزل رحمته عليهم فى شريعته اليهم وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الايمان غدت من بعد تيارا من التفتح الذهنى أخرج للأمة ما أخرجت من الآيات وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه فى الواقع هو الدين نفسه ، أو القدر الأوفى من الدين وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، فمنح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيما ، ولغتهم فصحى ، وقدم الموالى من جانبهم أسباب حضارات فاخرة ، وأصول تفكير عميقة ، واشتاع الشريكان أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الاسلامية على الانتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعا قوية جديدة الطراز .

***

واذا كان ثمة وقائع تشير الى النفرة بين العرب والموالى فقد صارت حديثا فى التاريخ بعد أن توج الازدواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه فى فاتحة القرن الثانى : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟

قال : بلى ياأمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فمن فقيه أهل مكة قال « عطاء بن أبى رباح » .

قال : مولى أم عربى : قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال « طاووس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال « يحيى بن أبى كثير » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قال « مكحول » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال « ميمون بن مهران » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى ؟
قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال « الضحاك بن مزاحم » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !
قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال « الحسن وابن سيرين » .
قال : « موليان أم عربيان ؟ قال : موليان !
قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال « ابراهيم النخعى » .
قال : مولى أم عربى ؟ قال : لا بل عربى!
قال : كادت نفسي تخرج ولا تقول واحد عربى ! .

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة الذى كان فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الاسلام قال غيره .. فلما سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح فيهم .. : (ماذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون ؟)

والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله (لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئوننى بالأنساب « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقف رجلان مولى وعربى على مجلس لبنى العنبر . والعربى على حمار والمولى على ناقة . وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب . فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا الى العربى ، فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى قبل العربى فأسكتوا ، فانبرى واحد منهم فقال له : بدأنا بالكاتب قبل الأمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى ينظر به الاسلام الى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى بنى العنبر .

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمد الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب . والأولى ترجموا ، وألفوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلقاح

الفرس ، واليونان ، والنبطيين ، والكلدانيين ، والأشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة اسلامية جامعة .

وفى العهد العباسى كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى ، كان عمارة ابن حمزة بعيد الصوت فى بلاط المهدى فدخل عليه يوما فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذى أعظمته الاعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاى . فسمعها عمارة فرجع يقول : ياأمير المؤمنين جعلتنى كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك : كافور — الأسود الزنجى كما يقول المتنبى — وأبو المسك — كما يناديه أيضا — كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبى كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان الموليان اللذان يقصران دون مجدهما كل مجد السادة هما اللذان منحا الانسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفى التاريخ قديمه وحديثه ، ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الاسلامى وحروف الهجاء فى آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبى حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم فى التاريخ حيث يوضع .

فلا نسل اذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخار ولدهما اذيقال انهما موليان ، وفتاهمافخار هذه الأمة الاسلامية على الزمان، بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقالة المتنبى لجدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد   فان أباك الضخم كونك لى أما

***

ان هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب ولئن ساغ ذلك النبوغ فى السياسة أو فى القيادة أو فى الفن ، فانه فى الفقه ، وللوهلة الأولى ، يستوقف النظر ، وبخاصة

فى فجر الاسلام ، ففى الفقــه نصوص القرآن والأحاديث والسنن ، فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية فى سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبز الخلص من بنيها !

هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، وهذا ابن حنبل أصله من مرو ، والطبرى من آمل بطبرستان ، وابن جريج رومى المنبت وربيعة الرأى فارس الأصل ، والشعبى علامة التابعين كانت أمة من سبى جلولاء ، والحسن البصرى كان أبوه من سبى ميسان ولو عمدنا الى الحصر لشمل الكثرة الغـالبة من أئمة الفقــه والعلم ، ولكنا نقتصر على بعض الأمثال . ان اللغــة نفسها قد سعدت بالموالى مثلما سعدت بأربابها هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان من الموالى ، وهذا سيبويه يضع قواعد النحو ! والكسائى وارث علماء البصرة ، وتلميذه الفراء كان ديلميا كمهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والفارابى كانوا موالى أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع سـيد النقلة الى العربية .. وهو أول من أشـار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية الى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحى فى شـبه الجزيرة كالغيث ، وسـال من قممها الى الوديان الاسلامية طرا حيث قر قراره ، واحتمل السيل فى فيضانه تلك المدنية الرابية لا تقفها الحدود ولا السدود فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب فى المحيط الأطلسى : بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تلقى اللواء فى مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر ، فأبقى الجامع العظيم على حضارة الاسلام ألف عام ليؤديها الينا فى القرن الرابع عشر والى كل القرون .

ان هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ، فخلبت لبه قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والاخلاق العامة والزكاة ، والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوى العام الى جوار بيت الله الحرام والمؤتمر الأسبوعى الخاص فى يوم الجمعــة فى كل مكان ،

وحرمات البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ، ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما اليه من خصائص الاسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر ايمانه ، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجبا .

وبهذا تمثلت الشريعة الاسلامية الملل والنحل الشتى فصارت أمةواحدة هى الاسلام ، لا فضل فيها لعربى على أعجمى . ، وانما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربيـة ، قد استبدت بهشام بن عبـد الملك فانما جاهلية ذمها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « يا أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان بر تقى كريم على الله، وفاسق شقى هين على الله والناس بنو آدم .. » ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب وأن الاسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدهـا وأن نبوغ النوابغ من أفنان الدولة وانما هو أفخر التحايا للدين الجديد فى مطلع سعده وفاتحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شىء ، ولم تبق للناس من دونها شيئا .

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسـلام ، وحسبها هو ... ولو انه ليس لها وانما هو للدنيا جميعا ..

لقد اعتز الاسلام بأهل البـلاد المفتوحة وتألقت فى سماواته حضـارة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائما فى وسط الجزيرة وحيثما كان المسلمون ولوا وجوههم شطره مبتهلين الى صاحب البيت العتيق بمكة مصلين على صـاحب القبر الشريف بالمدينـة .

الباب الثاني

التاجر

« لا تشاور من ليس في بيته
دقيق فانه موله العقل »
(الشافعي)

كان أبو حنيفة خزازا يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف ، وقديما كان نبى الله ادريس أول من خاط الثياب ، وكان الصديق أبو بكر بزازا ، وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجارا •

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبى حنيفة كان أفلاطون يعمل فى التجارة ويقول « أريد الثراء ولكننى لا أريده من الظلم » ، ويبيع الزيت فى مصر ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبى حنيفة بألف عام كان اسبنوزا يصنع العدسات •

كان أبو حنيفة تاجرا صناعته الفكر ، ومفكرا يعمل فى التجارة ، ومن ثم كان توفيقه التجارى ، الذى انحدرت الينا أنباؤه مع التاريخ • ومرده قطعا الى دراية ذات شعب ، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر الحديث يسمو عن الاعلان ، وهى ذرائع تكفى احداهما للنجاح فكيف اذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة ، وأناقة ، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ، وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا فى الأرض مراغما وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الاغنياء مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم فى معترك الحياة بالخروج الى السوق العام ، فى صميم الميدان ، أو فى عرض الخضم ، بالكدح والدأب واللغوب .

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التى بازائها المفكرون حزنى مبلسين ، عقدة الفقر الذى عود الناس أن يلازم الفكر ، والمفكر الذى يرتحل رحلة الحياة الدنيا جوعان تعسا تهدر المسغبة مزاياه ، يقدح فكره ألمعية ولوذعية ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة الى ثمن بخس دراهم معدودة ! ويتراءى له بريق النعماء ويعجز عن الدنو منه والدلف اليه فتتحالف عليه مركبات النقص ، وتضيق به المسالك المتنادحة ، فينوء بالحياة مثلما ناءت به الحياة .. ويخرج منها محروما مقترا عليه فى الرزق .

وفى حالتنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة ، فلم يك ممن يجلسون الى الأرض ويرفعون أكف الضراعة الى السماء فان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، أو يمدونها الى الأمراء فان مال الأمير ثمن لنفس العالم ،

أو يرقبون أن تنهض حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ فى حلبة من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبو أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم ابراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمن ابن الأغلب عليهم بعطائه فقال أسد « لا عليه انا أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقى ... » ولم يكن أسد ليقولها الا وهو القاضى العامل فى القيروان ، والفاتح الغازى الذى مات على رأس الجيش فى حصاره لسراقوسه بصقلية سنة ٢١٣ .

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله ، وكلما أغنـاه الخالق عن الخلق أدناه الى الحق .. واذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله .

وأدرك الشافعى ذلك من بعده بنصف قرن فقال « لاتشـاور من ليس فى بيته دقيق فانه موله العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه الى البأساء والضراء بأمراس كتان من الرهبنة المضيعة ، والتبتل المؤذى ،فى حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبدا ، وفى أمة يقول رسولها ان أفضل الكسب (بيع مبرور وعمل الرجل بيده) و (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

و (نعم المال الصالح للرجل الصالح) كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد — امام مصر — ذا ثراء عريض يضـع الدنانير فى الفالوذج فمن أكل من صحبه أكثر نالته دنانير أكثر ..! وكان صاحبا لمالك ابن أنس امام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه (حدثنى من أرضى به من أهل العلم) ومع ذلك كتب اليـه فى تثريب يقول (بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق) .

وأدركت ضفاف النيل لذع الضربة الموجهة اليهـا من شمس الصحراء فاستعان الليث عليها بالله ، يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقائق أو أكل الرقاق،

فكتب اليه يقول (قال تعالى : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وعاش الليث فى جاهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه الشافعى انه (أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به) .

كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكان العراق أثمن جوهرة فى التاج ، فيه ست كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أى شأن ، فيه النهران يجريان ، بالرخاء والعمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضارة الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد . كما تلاقى رجال من كل رأى يجاهدون فى سبيل العلويين وفى سبيل الأمويين وفى سبيل ابن الزبير وفى سبيل بنى العباس ، وفى سبيل الأمة . أو فى سبيل أنفسهم ، فأى جيشان بعناصر الحياة ، ونوازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت تجيشه هذه الكورة ، وأى مضطرب للفتى المثقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة اذا كان يبتغى النجاح بمعناه الانسانى لا المالى ، وبمعناه الذى أراده الله لا معناه الذى يحصى ويعد بمقدار ما ينتج من النقد ، بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه .

بدأ أبو حنيفة حياته فى التجارة يطبعه الطابع العلمى ، فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة سماه للامام الشعبى يوم وجهه للدرس الفقهى كما مر بنا ، وهى ظاهرة تتراءى لك فى حياة أبى حنيفة فى غير موضع مردها الى ما فيه مزاج جامع بين العلم والعمل ، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملى محض ، حتى اذا كان فى ريعان حياته قدم اليه رجل تاجر فقال له (أراك تتجر ، التجارة اذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب) ولئن كان ما عناه هو العلم العام ، ان الطابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه ولعل الفائدة التى يعيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى فى العمل التجارى .

وهكذا دخل الى السوق مدخلا كريما فأضحى فيه من المجددين والمجدودين ، اختار لدكانه مكانا من أبرز أمكنة الكوفة فى دار ليست هينة على التاريخ ، هى دار عمرو بن حريث ــ الصحابى ــ يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجد فى حياة العراق ، وحيث يكون للأماكن شأن .

ففى سنة ٨٣ سار ابن الأشعث من البصرة الى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بواليهم ، ومالوا الى ابن الأشعث وسبقت اليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث وفى سنة ١٢١ خرج زيد بن على وخرج أهل الكوفة معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث ، فهى لا مرية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرحاء المعارك .. وحيث سوق الحرير .

وانك لتتصور مظاهر الذوق فى ترتيب دكانه مما كان عليه فى خاصة شأنه حسن هيئة ، وبزة وتفكير وتعبير ، بل انك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تتنسم العطر يتأرج من أردانه وزوايا دكانه ، وتتصور النساء اذ أقبلن أو أدبرن ، بائعات أو مشتريات ، يغضضن من أبصارهن ولا يبدين زينتهن . يدلفن الى الدكان كأنما يفدن الى الدرس ، وينفصلن عن دار ابن حريث كأنهن ينفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن من الدكان فى المحراب

كان صاحب هذا الدكان يقول (« من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلا » ويقول : « اذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » وكان رحمه الله اذا مشى فى الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأة . قال فى وصية لأحد مريديه « .. واذا مشيت فى الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر الى الأرض .. ولا تماكس بالحبات والدوانيق .. » فياله من رجل رفيع وتاجر رفيع .. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه فلا يبخسها بانفاقها فى المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانيق أم بغير الحبات والدوانيق .

جاءت عجوز الى دكانه تطلب ثوبا وتوسلت اليه بسنها أن يرفق بها .

قال : دونك هذا الثوب يا أماه ..

قالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لاتسخر مني وأنا عجوز لا حيلة لى ..!

قال : انه لكذلك . لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله الا أربعة دراهم . وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمنا للثوب الباقى ..

أضف الى هذه الصورة والى آداب التجارة ، أن الحانوت ليس محلا للمدارسة ، وان تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة وهكذا بقيت دار بن حريث خالصة للتجارة ، أما العلم فبقى دائما فى مكانه . لا فى السوق، ولا فى الطريق .

فى ذلك الحانوت يجلس سيد مكيث غير عجل ، مخبور التجارب ، يتقبل الناس بقبول حسن ،وضاء المحيا ، منبسط الطبع ، ميمون النقيبة ، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لايمايل ، ولا يتحيف ، ولا يستكبر ، ولا يستنكف يقصده فظ القلب فيألفه ، ويسر به الرجل فيجلس اليه لغير قصد ولا مجالسة ، فاذا قام سأل عنه فان كانت به فاقة وصله ، وان كان به مرض عاده ، حتى يجره الى مواصلته .

أما صدق المعاملة والنفرة من المماكسة ، فكانتا كلمة السر فى دكانه ، لكأنما كانت كل ألواح « الثمن محدد » مرسومة فى مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد الى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الاساتيذ فى الجدال ، ان لكل مقام مقالا .. وليس هنا مقام الجدال .

وهو لايهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الانسان ، بل انه ليقطع أبعد الاشواط فى مضمار النصفة ، فلا اعلان ، و لاشبهة اعلان ، لما قد يكون فى الاعلان من ايهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس فى ذلك العصر حديثى عهد برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تأسرهم الكلمة اذا سيقت ولو فى السوق ، فكيف بها اذا خرجت من فم الاستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفى دكانه .

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوبا ، فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد ..!

قال أبوه : مه قد مدحته ..

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشترى فى السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد الى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة الى الثوب . وأظهر ما يكون استعدادا لدفع الثمن ، ولكن الشيخ فى غير مخاشنة ولا مشاقة ، بل فى سماح واسجاح ، رفض أن يبيع .

وعاد المشترى أدراجه .

وفى ذلك الحانوت بضاعة لاتعرضها الحوانيت الاخرى فى سوق الخزازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة الى الكوفة ليشترى لبنته جهازا ، فينبهه الناس على الجهاز فى دكان « الفقيه الخزاز » . وان الذين يعرفونه ليحذرون الذين لايعرفونه من المماكسة ، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

واذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشتريا فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدى أستاذه بما صنع رد الاستاذ ما زاد على الثمن ، بعد اذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها .

وكما كان التفكير أداته فى الفقه ، كان الفكر أداته فى التجارة . كان الثمن فى دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف اليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بقياس العدل والعقل ، فكما كان القياس الأعظم فى تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المنصف فى ثياب الخز فى دار ابن حريث .

حقا ، انك لاتستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجارى قد جاءه عن الفقه أم أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده ، لكن ثمة قدرا متيقنا تستطيع أن تقرره بين الجوابين ، هو أن الصدق والحزامة فى التجارة قد هيأ

له من النجاح أسبابا مواتية للتفرغ لدين الله ، فى روحانية المتعبد ، يستقبل تلك اللمحات التى يبعثها الالهام فى الكون كومضات النور • والسعيد السعيد من رآها ، وكانت ملكاته متحفزة تتلقاها ، كما تستطيع أن تقرر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس فى أفكاره ، فغدا فقهه فقه الحياة التى نحياها ، ورحم قلبه ضعف الانسان ، وكان التسامح كبرى قواعده ، وتحمل مسئولية المخاطرة فصدع بالرأى فى مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول ، وامتد بصره فشمل المستقبل ووضع لاحتمالاته مايحكمها من الأصول متحرزا — كما قال — من البلاء قبل نزول البلاء •

وكما أثرت فى الفقه التجارة ، أحدث الفقه فى التجارة آثاره • فلئن كانت فى الفقه العصرى مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وان كانت تستزريها قواعد الآداب ، ان الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق •

بعث بمتاع الى حفص بن عبد الرحمن شريكه فى التجارة وأعلمه أن فى ثوب منه عيبا فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمنا كاملا لثوب غير كامل — وقيل ان الثمن كان ثلاثين ألفا أو خمسة وثلاثين ألفا — فأبى أبو حنيفة الا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى ، ولكنه لم يهتد الى الرجل فأبى أبو حنيفة الا فصالا من شريكه وتاركا •

بل رفض أن يضيف الثمن الى حر ماله وتصدق به كاملا •

ذلك مثله لانصاف المشترى من نفسه ، وهذا مثله اذ ينصف من نفسه البائع : جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ، قال بكذا • قال انه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف !! بل جاءته امرأة بثوب خز يبيعه بمائة فقال لها هو خير من مائة • بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربعمائة . قال هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بى ؟ قال هاتى رجلا • فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم •

وصدقت المرأة أنه لم يتخذها سخريا • وصدقت كذلك أنه لم يك يريد الاحسان اليها .. وانما نفع الله به البائع والمشترى .

فهو ينصف المشترى منه•والبائع له ، وينصف من لايبيع له ولايشترى منـــه ،، كل أولئك ونظائره فى لين وخفض جنـــاح ، وسلاسة طبع وســـلامة أسلوب ، فاذا راح يقتضى دينه من مدينه لم يجلس فى ظل جداره !! قالوا انه لايريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن يفىء الى ظلاله اذ يجىء الى داره ، وهو الورع الحق ، لـــكنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تضيف الى عسر المدين الحاح الدائن ، اذ يترصده .. فلا يجزى المطـــال بالاحتلال وان كان الاحتلال مجرد فىء الى الظلال •

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذى وصفوه بأنه كان رجلا وسيما « •• وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته •••»!

ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفـــة ، وقد كان بينهما تواصل ذهنى يتراءى خلال ذلك التشابه • فى العمل وفى الطباع ، حتى أن أبا حنيفة كان يأخذ بأبى بكر وأفعاله وخصاله .

وذات يوم بعث الى فتية يقول لهم : ان أباكم أودع عندى مائة وسبعين ألفا فخذوها ••! ولم يشهد عليهم فانه لم يكن أشهد عليه ، وهو لايريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال •

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفا ردت لذويها .

وازدهرت تجارة أبى حنيفـــة أيما ازدهار ، ان هذا الانفـــاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم كما سترى بعد ، وهذا التصدق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها ، لاتسمح به الا البيوت المالية الوطيدة الأركان والنـــاجحة كل النجاح ، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل ان بعض أعداء أبى حنيفـــة دس له عند المنصور أن أموال أبى حنيفة استعملت فى تقوية ابراهيم بن عبدالله (بن الحسين بن الحسين بن على) اذ خرج على أبى جعفر وانه لهذا حبس أبا حنيفة •

الى هذا القدر بلغت هذه الأموال .. أن تساعد فى ادالة دولة واقامة دولة •••!

بهذه القواعد التى بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال كريمة للناس .

انك لاتستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالدنيا مدرسة مكبرة ، والحقائق لاتفهم مصورة ، ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق ، والناس فى الدنيا كالتلاميذ فى المدارس لن يفهموا شيئا الا اذا صنعوه بأنفسهم ، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء ، ـ والكلام لايهدى قدر ما يهدى العمل ، وما تهدى القدوة ، والقدوة فى العلم هى أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو تصبه من قوالب .

أذن النبى لصحبه وهم على سفر فى الافطار شهر رمضان وبقى هو صائما فلم يقطعوا صومهم حتى عمد الى الفطر، فخفوا الى الاقتداء بفعله وأفطروا ...

ونظر فتيان من أسباط الرسول عليه السلام ـ يجرى فى عروقهما دم الهدى والرسالة الى أعرابى على شاطىء الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما ، لو قلنا له غلطت ربما انتفخت أوداجه ، ولا ينقاد الى الحق فقاما اليه ، وقالا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلى عندك ، فان كان عندنا قصور فعلمنا ، فتوضآ وصليا كما عرفا عن جدهما عليه الصلاة والسلام فتاب الشيخ ورجع عن صنيعته .

ان قاعدة الاصلاح فى جيل هى أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث فى اصلاح سواه فالنفس هى التى تسمع لا الأذن وفى الناس لجاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم الى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام اليه .

خطب عمر بن الخطاب يوما وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون؟ قال سلمان : لانسمع .

قال عمر : ولم ـ يا أبا عبد الله ـ ؟

قال : انك قسمت علينا ثوبا ثوبا ، وعليك ثوبان .

قال : لا تعجل • ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد • قال : ياعبد الله ابن عمر ــ ابنه ــ •

قال : لبيك يا أمير المؤمنين •

قال : نشدتك الله ، الثوب الذى ائتزرت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم •

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع •

ذلك سلمان الفارسى أو النـــاس جميعا •• ومع الخليفـــة الذى خطب عنـــدما تولى . ألا وانى أنزلتمن نفسى مـــن مال الله بمنزلة والى اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف تقرم البهمة الاعرابيـــة القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الاكل بأقصى الاضراس) •

وقديما قيل : خير من الخير فاعله • وشر من الشر فاعله •

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الأراء فقال : (ان النـــاس أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله فذلك الذى أصاب حظة ومن خالف فعله قوله فانما يوبخ نفسه) ومنقبل قال عليهالصلاة والسلام (ان فى جهنم أرحاء تدور بعلمـــاء السوء ، فيشرف عليهم من كان يعرفهم فى الدنيا فيقول ما صيركم فى هذا وانما كنا نتعلم منكم . قالوا كنـــا نأمركم بالأمر ونخالفكم الى غيره) •

وقال (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا) •

من أجل ذلك كان الزعماء العـــالميون قوما زاهدين ، وخاض القـــادة المبرزون معاركهم فى الصفوف الأولى وفى الطليعة : كخالد بن الوليد وعمر ابن الخطـــاب ، وعمر بن عبـــد العزيز ، وغاندى فى الشرق ، وكرومويل ، وسالازار وديفاليرا فى الغرب •

ومن ثمة تدرك أثر القـــدوة فى عمل التاجر الكريم النفس والـــكريم الفعـــال •

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاما وكان رجلا صالحا روى عن شريكه الحديث والفقه ، ولا ينبيك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجارى للزميل التاجر . وما أدراك ما فى الضمير التجارى : المخالب المخضبة تقطر من دم الضحايا ، والمخارج ، والحيل ، والسعار المعذب المندفع نحو كل ما هو مادى ومالى ...! الى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة .

فلنستمع اذن لحاصل التقرير الختامى عن الشركة حيث يقول حفص (جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحدا أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة) .

ولئن سمعت أحاديث الورع فى مجال الورع فمن العجب حقا أن يباهى الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وبزهده ونسكه وعلمه ، مجتمعة ، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنساك مجتمعين .

ولنستمع اليه مرة أخرى يقول بعد أن تتاركا « فى طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف ما يسر ولم أحدا يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه ، وكان اذا دخلت عليه شبهة من شىء أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله » .

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يبطن مثل ما يعلن ، ولا يصنع فى السر الا ما يصنعه فى الجهر ، فيرى الله أمامه ولا يرى البشر .

ولئن جاء فى الحديث أن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق أو كان من أصول فقه أبى حنيفة أن الشك لايزيل اليقين فان هذه الأصول للناس وليست له . ولو كلفته جميع ماله .

ان أبا حنيفة قدوة للناس فى علمه ، فليكن قدوة للناس فى عمله ،وليأخذ نفسه بالشدائد ، حتى اذا نقلوا عن الأصل ، وخف الأثر فى النقل ، وصل اليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبى يوسف « ولاترض من العبادات الا بأكثر مما يفعله غيرك فان العامة اذا لم يروا منك الاقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يعتقدون فيك

السوء وقلة الرغبة فيها ويعتقدون أن علمك لاينفعك ولا يفيدك الا ما أفادهم الجهل الذى فيهم .. وكن من الناس على حذر ، وكن لله فى سرك كما أنت له فى علانيتك فلا يصلح أمر العلم الا بأن تجعل سره كعلانيته » .

ولما نهاه الأمير عن الفتيا فانتهى ، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة فى داره فلم يجبه ، قال يا أبت مالك لا تجيبنى قال « أخاف أن يسألنى السلطان هل أجبت أحدا فلا أستطيع أن أقول شيئا » .

ولقد كانت لديه مندوحة فى أن يفتى ، لكن الرجل القدوة لايرى لنفسه الرخص ولا المنادح ، وانما يؤثر فى حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حرفى الوفاء .

على هذه القواعد وأشباهها قام ذلك البيت التجارى فى دار ابن حريث بضع عشرات من السنين ، تكفى للتمكين لتاجر صيت زاكى الأحدوثة نقب فى البلاد ذكره وذكر عروضه من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحفه به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه الصبوح خطاب توصية فيه القبول .

***

جاءت تكاليف الاسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين عما يسأل الناس عنه .

كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر ، ويأتى على أهله الليالى ما يجدون فيها عشاء ، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى مسندته الى صدرها ياعائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى ، قال فأنفقيها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها فلما آفاق قال هل أنفقت تلك الذهب ياعائشة ؟ قالت لا والله يارسول الله . فدعا بها فوضعها فى كفه . فعدها فاذا هى ستة دنانير فقال : ما ظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم .

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يوميا درهمين هما كل المخصصات العمرية ! بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدرة ! ويضرب عامله على البحرين

« أبا هريرة » حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله مابعثناكم لتتجروا فى أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل اليه المال ويشاطره أمواله .

مر يوما ببناء يبنى بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمـالك قال : أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها . وشاطره ماله ! ولما أخذ يستخلف قالوا له لو أنك عهدت الى عبد الله ـ ابنه ـ فقال .. « بحسب أهل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد .. ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفـافا لا لى ولا على » .

لكن صاحب هذه النفس العنيفـة يرى فى فحمة الحلك أطفالا جيـاعا فيحمل اليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العمريات التى تذر المفكر فى ذهلة المتحير ، وهذا التوفيق الذى سددت به العناية الالهية خطى أبى بكر وعلى وأبى عبيـدة وسعد ابن أبى وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثـالهم فى كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء جميعا من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التـاريخ الاسلامى ، ليست الا أصداء متفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأعلى من الرسول عليه الصلاة والسـلام . مايزال يدوى خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب السيار عن أن يدور .. وانما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المـدى ، فتهتز له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة لأن الصوت الأصيل الذى يدوى فى الأرض هابط اليها من السماء . تصيب نفحاته مـن أحاطوا به ومن لم يحيطوا . فانتقلوا من الجاهلية الى هدى الاسلام وغدوا حكاما وحكماء وعلماء ومشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالا فى الوغى يجدلون الأبطال . ليس ما أحدثوه الا آثارا مما أحدثه الصوت الأول فيهم . فلما صعدت روحه الى بارئها كانت كوعاء العطر اذا فض قدامه فاض العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعى ، ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ولا طارق بن زياد وأترابهم فى كل فن من فنون

العلم أو السياسة أو الحرب الا رجال تضرم جذوة الايمان فيهم حرارة الرسالة التى كانت تغمر قلوبهم بالنور •

انما هى الزعامة الصحيحة الملأى باليقين تخلق الناس خلقا جديدا وتنعكس على أنفسهم شتى الانعكاسات ، فتحدث الأحداث متقاربة أو متباعدة ، فى العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المسافة الزمنية والمكانية ، وانما يهم الايمان الصحيح الذى يخلق القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان •

وسترى بعد كيف كانت حياة أبى حنيفة قدوة للفحول والأبطال •

***

كان أبو حنيفة خزازا ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارا وصناعا •

هذا الامام الخصاف أحمد بن عمر بن مهير ، أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبى أبى حنيفة ، كان الخصاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ، ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال .. وهذا الكرابيسى يبيع الكرابيس ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فاذا على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملى فى « صناعة الأقفال » وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطا ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل فى الجص ثم هؤلاء الصفار من بيع الأوانى الصفرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطور) والحلوانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى ، والنعالى ، والبقالى ، والقدورى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الاسلامية ، أن هذه الأمة حققت فى العصور الأولى ماجاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه، ولما يكد يحققه ، أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيعة وانما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم ، ويشهدون بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس سننه ، وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجعلت لها سهمها المسلم فى أسمى الذرى ، فترى ، فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى

الفقهــاء الصناع . والصناع الفقهــاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معــا ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوبا .

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ، كان العلماء عنده تلامذة ، كما قال ميمون بن مهران ، وعبد الملك بن مروان الذى قال عنه ابن عمــر : ان لمروان ابنا فقيها فاسألوه ، والمأمــون عبقرى التاريخ الاسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبى الذى يضع كتاب الرد على الخطيب البغدادى سنة ٦٢١ هـ ينضح به عن امامه أبى حنيفة .

تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهمــا وتطبيقا ، يفهمها الاميون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأنها (فطرت الله التى فطر الناس عليها) قوامها الصفاء والسهولة والصراحة ، ففى حلبــات البحث مضمار للافذاذ وللافراد وللملوك أيضــا . كل ميسر لمــا خلق له ، فلا غرو أن يرقى الى الأوج العلى فيها أصحــاب الحرف ، وأن يسود فيها الرجل بهمته لا بمهنته ، فى حضارة لحمتها وسداها الاخاء ، يحب المؤمن بها لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، (اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

وتلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التى نشهدها فى الحضارة الاسلامية تصدر عن أصل عميق يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الاسلامى وتاريخ الفقه فى سائر الأمم : فهنالك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهنا يصدره رجل الدنيا .. وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان . وهنالك بين المعاملات والعبادات خلافات أى خلافات ، فلا يتحدث عن العبادات فقهاء كفقهاء الاسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولكن قسيســون ورهبــانا يستمرئون فى عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويستنزلون فيوض الالهام ، أما الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقا ولكنها لا تعرف الرهبنــة ولا الطقوس ولا المراسيم ، وهى اذا كانت جهادا ضد النفس وضــد الكفر فهى أولا وبالذات دين اجتهاد .

الباب الثالث

في المسجد

« الشعلة من الشرارة »

بوشكين

نحن الآن فى المسجد الجامع . وان شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجد بنى فى أعلى مكان من المدينة ليسع أربعين ألفا وبنيت له ظلة تبلغ مائتى ذراع من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة . مال ميزان النهار ، وأخذت الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عقرباها الى يوم الساعة، تحدد مواقيت الناس . فيفدون للصلاة ويتطهرون بالوضوء يرحضون أطرافهم ويغسلون وجوههم ، وينتعشون بعد ما عانوا فى سبيل المعاش اذ ينتقلون من الدنيا الى حضرة الخالق فى ركعات معدودات هنالك تسمع زجلا للناس قد ألفوه بعد كل صلاة : اذ يأوون الى ركن أو يلتفون حول واحدة من أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل فى خصوماتهم واستفتاء قضاتهم .

هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد .. هذه حلقة مسعر بن كدام للقرآن والحديث ، وتلك لابن شبرمة يقضى ويفتى ، وتلك لمحمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة . وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعا .. يكاد المسجد لايخلو من درس، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات فى المسجد الجامع .

وحتى فاتحة القرن الميلادى الحالى كانت الجامعات فى العالم الاسلامى هى المساجد الجامعة ، ففى الحرم النبوى كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفى الحرم المكى كان مجلس ابن عباس الى جوار الكعبة أكرم المجالس . أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واحد . وفى البصرة وفى الكوفة ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التى خلع عليها الاسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسية هى حلقات الدرس فى صحون الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء فى المسائل الفقهية والأدبية والقصصية وما اليها .

ولم يعرف نظام انشاء المدارس لتدريس العلم خاصة الا فى سنة ٣٨٢هـ فى بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفى سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة

نيسابور ، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطلاب العلم جميعا ، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتا للعلم كما هى بيوت الله .

كانت الى جوار تلك الحلق فى جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبى حنيفة النعمان . لايقبل اليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من اسفاره ، اى من صميم الدنيا .

فى هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبى سليمان الى أن وافته المنية فى سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبى حتى اختاره الله الى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس ابراهيم النخعى الى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعى الى نفس العام ، وجلس عبيد ابن عمر حتى سنة ٩٢ ومن قبلهم جلس علقمة النخعى عم الأسود وخال ابراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتى الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ كما جلس شريح بن الحارث الكندى نحو ثلثى قرن يقضى ويفقه الناس الى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتى الناس ويفتى شريحا حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعا جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود الى أخريات أيامه ثم ودع مجلسه الى المدينة حيث صعدت روحه الى الرفيق الأعلى فى سنة ٣٢ .

لم تكن حلقة أبى حنيفة كسائر الحلق بل هى كانت تثير المشكلات فى الداخل والخارج ، وتأتى كل يوم بجديد يتجلى فيها طابع التطهر فى الجسم وفى العقل معا ، فلا يستعملون الماء اذا استعمله سواهم . ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبى حنيفة للوضوء حياضا ذات صنابير فنسبت هذه الصنابير اليه (الحنفيات) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء والماء المستعمل غير طهور عند أبى حنيفة .

كان سفيان الثورى يفتى بجواز الوضوء بماء قد توضأ به الغير فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول انه ماء مستعمل ، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لايتوضأ به لأنه ماء مستعمل فرجع فيه الى قول أبى حنيفة .

فالحنفية التى تفتحها وتقفلها صباح مساء هى الذكرى المتجددة لهـذه الحلقة المتأنقة فى طهارتها لاترد المـاء الا صفوا من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء •

واذا كان من المسلمات فى العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تتعلق به عدادات المياه وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالا للماء وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هى كالصلة بين النظافة والمـاء ، فأي ذوق كان لأبى حنيفة من ألف ومائتى عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة .

واذ كانت النظافة من الايمان فمن كأبى حنيفة فى نظافته وفى ايمانه !•

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة ان السواك من سنن الدين ، وينصح الحنفية بالاستياك عند كل صلاة ، ووضوء ، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود لينا لا يابسا وأن يغسله المستاك قبل استعماله ، وأن لايستاك وهو مضطجع •

ومن قبل قال عليه الصلاة والسـلام (لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) •

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثيابا رثة فأهاب بصـاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفرط عقد الحضور ، حتى اذا صار الرجل وحده قال له ، ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحتـه ألف درهم قال (خذ هذه الدراهم فغير بهـا من حالك) قال الرجل انى لست أحتـاج اليها وأنا موسر قال أبو حنيفة (أما بلغك الحـديث « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فينبغى لك أن تغير حالك حتى لايغتم بك صديقك) !•

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل انها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الجديرة بأن تسمى حلقة النظافة ، كما هى ولا مراء حلقة الثقافة •

بلى : ان الله سبحانه وتعالى يحب أثر نعمته على عبده والناس كخالق النـاس ــ سبحانه ــ يحبون أن يروا أثر النعمة على من حبـاهم نعماءه . والثيـاب الرثة لاتطمئن ولا تسر • وما لايقبل شكله لا ينظر فى موضوعه ،

فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع . وأول ما يبدهك به الرجل منظره ومظهره . ففيم يفرض المتهاونون فى مظهرهم على النـــاس أن يفتحوا أعينهم على القذى !•

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه : أحمل معنا ألف دينار فانى أريد أن أمر بالأصمعى فاذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره ، ثم صار اليه فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يضحك • فقال له صاحب كان معه : انه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شىء قد أخرجته من بيت مالك قال جعفر : قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم • ولم أدخل له بيتا قبل هذه الدفعة ورأيت حبة (الجرة الضخمة) مكدرا وعليه برنكان (كساء أسود) منجرد وتحته مصلى وسخ . وكل ما عنده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام أعطيه الأموال اذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه.!

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته ، واحتبى بطيلســانه واستند الى المحراب ، مشرق الديباجة طلق المحيا فى بزته التى عهدناها وأقبل الى الناس فحياهم واذا كان راجعا من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، واذا لم يك قافلا من سفره فهو بين ظهرانيهم يسهم فى أمورهم ويتعهــدهم ويواسيهم ، فاذا شرع فى الكلام انجفل الناس اليه مخلفين حلقــاتهم ، يتقصفون حوله صفوفا صفوفا ، فى زحمة لاتسمح للفتى الذى سيصير فى الغداة اماما وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلسا الا فى الصف الرابع أو الخامس، أما فى الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الاول ، الزملاء القدماء : اسماعيل بن حماد وأبا بكر النهشلى وأبا بردة الضبى ومحمد بن جابر الحنفى يجلس معهم بين الفينــة والفينة أساتذة الحلق المجــاورة ، مسعر بن كدام ــ آية الكوفة فى ورعه وحفظه وزهده ــ والحسن بن عمارة ــ أستاذ الحلقة القريبة ــ يجلسان مع أترابهم الى ذلك الذى لاترب له ••

وهؤلاء فى الصفوف الأخرى •• أســماء لهــا جرس بديع فى الأذن زفر بن الهذيل ، كان أبوه والى البصرة وكانت أمه فارســية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لســانه •• ويعقوب ــ فتى من العامة سيعرف فيما بعــد

(بأبى يوسف) — والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكرى للكوفة عبد الله بن مسعود ، عالم فى اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا أسد بن عمرو البجلى والوليد بن أبان ثم هذا صف آخر ، فثمة وجوه جديدة : داود الطائى الذى سيرقى الى الذروة فى العلم ثم يغرق كتبه فى الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاما ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه . وفضيل بن عياض ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، ويوسف بن خالد السمتى ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول ، وحفص بن غيات ، وعافية الأودى ، وعلى بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا ، وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة بن حمزة وستأتيك أنباؤهم بعد حين ..

وأخيرا وفى نهاية العمر ، جاء فتى يسمين وضاء المحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفا ، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ، أبوا أن يقبلوه الا أن يحفظ القرآن فغاب وعاد يقول انى حفظته فى سبعة أيام! لم يكد يجلس الى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقها الشيخ الى جوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيبانى ...

وهؤلاء وهؤلاء .. يناهزون الأربعين عددا : حلقة اسلامية بحق : فيها الموالى والعرب ، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها المخلطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطارح المتدارسون المسائل ، فاذا كان فى الحلقة غريب حياه وبدأ به فقال له : هات ما عندك . ويتناظرون فلا يستبد بآرائه . بل يطرح مسألة مسألة يسمعهم فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول « لايحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » ويقول « رأينا هذا أحسن ماقدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » . يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحرارا مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية فى التفكير الا اذا مارسوها فى التعبير . ولن يتعلموها مع الناس الا اذا تعلموها مع الأستاذ . وهو عندهم خير الناس .

ومن ألف عام قبل أبى حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : استاذى صديقى والحق صديقى فاذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة •

روى شاهد عيان : كنت عند أبى حنيفة وهو فى مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة فسكت ثم ألقى عليه أيضا فأجاب فقال : أخطأت يا أبا حنيفة • فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله لاتعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجىء شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت الى أبو حنيفة وقال « دعهم فانى قد عودتهم هذا من نفسى » •

بلى : وأية غضاضة على العالم أن يخطىء أو يخطأ ؟ أليس على رضى الله عنه يقول (كنت لا أرى بيع أم الولد فى زمن عمر •• واليوم فقد رأيت ذلك •) ! وأبدى ابن عباس رأيه فى مسألة من مسائل المواريث بعدم جوازها (العول) وقيل له : انك كنت تراها فى زمن عمر قال : (هبته وكان رجلا مهيبا ••) •

ذلك صنيع العالم يتراجع أمامه حجة العالم ، حتى اذا بدت له معايبها عاد يصدع برأيه من جديد • والذى يرجع عن خطأ الأمس الى صواب اليوم ولا يصنعه الا لانه اليوم خير منه أمس ! ورجوع عمر نفسه عن خطئه كان مضرب الأمثال • ففيم يشفق الشاهد على أبى حنيفة اذ يقول له الغلام مرة بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيرا أخف ففيم ذلك أيضا ؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها الا فى معارض النفاق . والنفاق ليس من دروس أبى حنيفة • واذا لم تسم الأشياء بأسمائها فى حلقات الفقه وحلبات الجدال فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ ان الخطأ ليس الا الخطأ • يسميه كذلك القائل الحر للسامع الحر • وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يضيع الزمان سدى •

قال رجل لعمر بن الخطاب (اتق الله) • فأنكر ذلك بعض الحاضرين• فقال عمر « دعه فليقلهـــا لى • نعم ما قال • لا خير فيكم اذا لم تقولوها • ولا خير فينا اذ ا لم نقبلها » •

ان العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق • وانه ليدرك أن عظمته الى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة الى الخلق العظيم الـــكواكب • فلعل الحق أن يجيئه من أى ذرة من ذرات هذا الوجود أو أى رجل مهما يكن من الخمول والفدامة ، وهو لن يستطيع أداء رســالته الا اذا وثق من قدرة الله على أن يصلح الدنيا على يد سواه •

قيل لأبى حنيفة : لايزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

خلت الديار فســدت غير مسود

ومن البــــلاء تفردى بالســؤدد

وفى أواخر القرن الرابع دعا الناس القيروان على بن خلف المعــافرى بابن القابسى ليجلس فيهم معلما فأبى ، فهدموا عليه بابه اذ أغلقه دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد :

لعمر أبيك ما نســـب المعــلى الى كرم وفى الدنيــا كريم

ولكن البلاد اذا اقشــعرت وصــوح نبتها رعى الهشــيم

ثم قال : وأنا والله ذلك الهشيم .. وبكى وأبكى •.

فاذا نبت من المناظر كلمة ، فما أحلم أبى حنيفة ! واذا تدهور صاحب السخيمة الى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم ، وينطح الطود الأشيم • قال له الرجل يا مبتدع يا زنديق • فقــال : غفر الله لك • الله يعلم منى خلاف ما قلت ، وأنى ما عدلت به أحدا مذ عرفته .. قال الرجل : اجعلنى فى حل . قال الامام (كل من قال فى شيئا من أهل الجهل فهو فى حل •• وكل من قال فى شيئا من أهل العلم فهو فى حرج ، فان غيبة العلماء تبقى شيئا بعدهم) .

ولقد يطول البحث فى المسألة الواحدة أياما وليالى أو شهرا أو أكثر من شهر • فيدأبون على الدرس ويكبون على التخريج • حتى اذا قتلوها بحثا

أثبتها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول • أو التفت الشيخ الى من يكتب منهم فقال له (ضعها فى الباب الفلانى •) ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فاذا أحكموه أخذوا فى غيره ، واذا استعصت مسألة أوغلوا فيهـا وتوفروا عليها حتى اذا قطعوا فيها برأى تهللوا بشرا وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر ! الله أكبر ! •

ابتدأوا فى مسألة الحيض فخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالغداةوالعشى فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعـا لله • وكان ذلك ايذانا بأن مسـألتهم قد خرجت •

واذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال « اللهم لا تؤاخذنى » ثم يفتى •

وفى ذات ليلة خرج من صلاة العشـاء ونعله فى يده ، فـكلمه زفر فى مسألة ، فتجاريا يتقايسان ، حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعـا الى داخل المسجد • ورجعا الى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى اسـتقرت المسألة على قول أبى حنيفة .

ترى لو لم يكن هؤلاء القوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة فى شرع الله انما هى سجدة من السجدات لذاته وتسبيحة بآلائه •

لقـد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله ــ جل شـأن الله ــ يولون وجوههم شطره فى المحراب أو فى حلقة أبى حنيفة •

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال (من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ، ولم يرسخ فى قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له فى علمه ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه) •

أليس هو القائل لنابغتهم أبى يوسف (••• وان بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم فانك اذا أعرضت كانت معيشـتك ضنكا . ») على ما قال الله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشـة ضنكا • » بلى لقد علمهم أن العلم توفيق والهام وعبادة اذ كانت تشـكل

عليه المشكلة فيقول : ما هذا الا لذنب جنيتـــه • فيستغفر الله • وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة •• .

أجل وهو الذى طالما قال لهم (ان لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا) •
وهذا الذى يقوله الشيخ لتـــلاميذه هو الذى قاله رسول الله من قبل (أفضل العبادة الفقه) خرج صلى الله عليه وسلم فاذا فى المسجد مجلســـان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله •• فقال « كلا المجلسين الى خير • أما هؤلاء فيدعون الله تعالى وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهـــل .. هؤلاء أفضل • بالتعليم أرسلت » ثم قعد معهم •

كان الطلاب فى الحلقة خشعا قلوبهم ، عالقة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل فى عقولهم وألسنتهم بينما تكاد آذانهم تشرب من عباراته ، وهو يتكلم كأن ليس فى المجلس أحد وكله فقهـــاء ورؤساء ولـــكنهم سكوت خاضعو الرقاب •

قال زفر (اذا تكلم خيل اليك أن ملكا يلقنه ما يقول) ، فمن فاته من الدرس فكرة ، أو ضاع من وقته فترة ، فقد نصف عمره ، ان لم يكن كل عمره . مات ابن لأبى يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبى حنيفة شىء لا تذهب حسرته عنه .

ضن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبقى لنفسه ســـاعة من أبى حنيفة .•! فأية حكمة تلك التى كان ينهل منها القوم وأية نعمى هذه التى كانوا يؤثرونها ••! ان المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبى يوسف الا اذا ذكر موقفا آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصح تقديرا اذا كان أبعد زمانا ومكانا •• أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، حتى اذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين •

فى تلك الأيام سئل عما يوده فقال (وددت أن لى مجلسا من أبى حنيفة بنصف ما أملك) قيـــل ، ولم تتمنى هـــذا ؟ قال (فى النفس حزازات كنت أسأله عنها) •

حقا : كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون : روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين : شيخنا ليس حاضرا ونكره أن تتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدىء بالكلام .

وقيل لأبى يوسف وهو قاضى القضاة : هل وددت الى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال (وددت الى زهد مسعر بن كدام وفقه أبى حنيفة) . قال الرشيد ما تمناه أكثر من الخلافة . ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء ، وأين الخلفاء من الأنبياء .

تلك الرهبنة العلمية ورثها تلاميذ أبى حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللدين معا كمثل أبى جعفر النسفى ، يبيت ليلته مهموما من ضيق البال ، وكثرة العيال ، فيقع فى خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص فى داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث .. فيخبرها فتعجب .. !

جاءت القزوينى زوجته وهو يلقى درسه فأسرت اليه خبر وفاة ولد له شاب كان يحضر معه فى كل يوم ولم يحضر معه فى ذلك اليوم . فأمرها بتجهيزة ولم يذكر للحاضرين شيئا ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال ان محمدا دعى فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبى حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقى دروسه وبين سامعيه أورلينوس أحد عظماء روما . فدخل جندى برسالة من الامبراطور الى أولينوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الرومانى لم يفض الكتاب الى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم خشع فى محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس، فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك ، والساعات التى تتيحها العناية الالهية للناس اذ يجلسون اليهما ليست مما يسرف الفتى اللقن فى انفاقه .

وفى بعض الأحايين يطول الجدال فى الحلقة ، ويحتدم وتتعالى الأصوات بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم اذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو
ثعالب صيحت بين النواويس

فاذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت الآذان والأذهان فالحلقة قانون غير مدون ولكنه فى القلوب انه « اذا تكلم الشيخ فسمعا وطاعة » . لقد جاءوا اليه وهم أحرص الناس على لقياه وسماعه ، عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له ان فى هذا المسجد حلقة ينظرون فى الفقه . فسأل (هل لهم رأس ؟ قالوا : لا . قال : لايفقه هؤلاء أبدا) ...

بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟.. وكيف تنتظم الحلقات بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام فى صخبهم ثم بصر بهم سكوتا كأن على رؤوسهم الطير اذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال « ان رجلا تسكن عنده الأصوات لعظيم الشأن فى الاسلام . » لكن الاستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم، فاذا نبههم الناس على أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغى فى المسجد قال « دعهم فانهم لايفقهون الا بهذا » !!

انهم لم يكونوا تلاميذ الا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فلسوف تراهم الدنيا غدا فحولا دونهم كل الفحول والافذاذ لو شهدتهم حول أساطين المسجد الجامع لحسبتهم فى مؤتمر دائم لايكاد ينفض .

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام مليا ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين . .ثم قرب الى المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء أرفقوا بالشيخ فانه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التى مضت منها ..

كان محمد بن أبى ليلى قاضى الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد وكان كثير الشكاة من تلك الحلقة التى تشرح أقضيته ، لكنه كان يتلمس فى الخفاء رضاء الشيخ عن تلك الأقضية ، واذا قدم ابن اسحق صاحب المغازى الى الكوفة جاراه فى المسائل . أما مسعر بن كدام فيترك تلاميذه ويجلس فى حلقة أبى حنيفة فيقول له تلاميذه : نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس الى أهل البدع؟ فيجيب « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علما » .

واذا سأل سائل عن العلم فان للعلم مكانة ، وللمفتى وقارا لازما لاستجماع الفكر يمتنع معه أن يفتى فى عرض الطريق ، قال لسائله مرة « لاتسألنى عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو نائم او متكىء فان هذه الأماكن لايجتمع فيها عقل الرجال » .

وللمرأة احترامها وحياطتها اذا جاءت الى الحلقة تستفتيه فانه ينهض اليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود الى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذى ضربه بينها وبينهم «انما غرضى أن أحصنها من أحداق الرجال » .

واذا قام من الحلقة عاد مريضا أو شيع جنازة . بل انه ليحمل سرير الميت من تلاميذه أو أصدقائه — آية وفاء وتحية وداع — أما دار ابن حريث فالريح تجرى فيها رخاء وعلى يد الله .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح . فالرجل الذى يقسم حياته بين يدى الله فى داره طول الليل لاينقص منه لنومه الا قليلا ، وبين يديه أكثر النهار فى بيته يؤدى فريضة العلم لعباده ، والذى يخرج عن ماله الضخم فى سبيل العلم وفى سبيل الله ، انما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التى يحملها للناس . ولهذا لم ير مستجمعا ضحكا قط ، وان كان يبتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه .. والقهقهة ليست على كل حال من خلائق السادة .

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوما !.. كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم : عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ ، والذى كان

يطبع الجد قسماته وحركاته حتى ليظنه الرائى قد أقبل من دفن والديه ، واذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا الا له ، ناظره أبو حنيفة فى فتوته ، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال : يا فتى تتكلم فى مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبدا . قال أبو حنيفة : فانقطع الكلام بينى وبينه رحمه الله وقال انه نادم على ما فرط منه أبدا .. وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انساق اليه من المغالاة .

وانه ليلقى درسه فى المسجد ذات يوم فاذا بحية تسقط فى حجره وهرب الناس ، فما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه ، واضطرب الدرس ، وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فرارا وملئوا منها رعبا . أما هو ، والحية قد سقطت فى حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقيا عنانه ، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد (فلا والله ماتخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير . ثم قال : « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيدا عنه) .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس . لكأنه اذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد فى المحراب بين يدى الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شانه الارتياع للبغتات والفجاءات ، لكن سموه على طيش الفجاءة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ فى وقاره وضعا مسرحيا ولا مدرسيا بل استمر فى درسه كأن لم يقع ما يريب .

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة فى احدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أنتم ؟ قال الأستاذ من فوره « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين : دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرأوا عليهم القرآن . فقرأوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة معسفــة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصبة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقه .

وهكذا جرت على لسان أبى حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال ، وجرت فى خلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الروحى ، وتذاكر المتحاوران فى صمت قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجــارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وسما الخوارج عن سفك الدماء، وسما أبو حنيفة فى التعبير عن أن يقول : انهم (مشركون مستجيرون) كمــا قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء اذ هم الخوارج برأسه فعصم منهم رأســه ونفسه . لكن أباحنيفة يقف وما فى الموت شك لواقف ، فيصيب فى العبــارة والاشارة ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات .

كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، وامتد الوقار من ذاته الى عباراته، فاذا حلف صادقا فى عرض كلامه تصدق بدرهم ! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين دينارا ..

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبى حنيفة خمس ســنين فما رأيت أطول منه صمتا ، فاذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى وسمعت له دويا وجهــارة فى الكلام » . وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفســه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد . يقرأ القرآن فى كل وقت ، ويبرز فى حلقــات المتكلمين فى صدر حياته حتى اذا بلغ عنفوانها قضى عليه القــدر أن ينهض برسالة من الرسالات التى تدين لها الحضارة الاسلامية بأسباب البقاء .

والجهارة والدوى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الالقــاء ــ كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة الى القلوب ، مثلما هى جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين » الى « شيشرون » الى « ابن أبى طالب » الى (ميرابو)، وفى « أثينا » و « روما » و « بيزنطة » ، وفى أسواق (عكاظ)و (مجنة) و (ذى المجاز) و (مكة) و (المدينة) و (العراق) و «مصر» ، وفى قصور الأمراء ، وفى رمال الصحراء ، وفى محافل باريس ولندن وفى كل مكان .

وسيبقى ذلك شأن البيان فى كل زمان ، والناس ، دائما هم الناس وكلما غير الزمان وجهه أظهر للدنيا وجهه نفسه باعتباره وجها جديدا .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء فالعلم لاينبع من القلب الا عند استجمام فضله واستجماع عفوه .

سئل الشافعى عن مسألة فسكت فقيل له : ألا تجيب رحمك الله ؟ قال « لا ، حتى أدرى أين الفضل ، فى سكوتى أم فى الجواب . »

من أجل ذلك ، كان مجلس الشيخ مهيب الجانب (ورأيه لايدفع بالهوينا) كما يقول الشافعى (ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته) كما روى مالك . كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها نفحة من منطق الرسول الذى قالت عنه أم معبد (كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن) .

والحضانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح الا بالخلو الى النفس بالسكوت ، أو كما قال ابن المقفع (ربما كانت البلاغة بالاستماع) . والذى يتحدث حديثا صالحا لا يتحدث الا لداع ، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء فاذا ألقيت به فى غير مكانه أو فى غير أوانه أو أدليت به الى ضمير جامد أو شعور بارد، كان لالون له ولاطعم فيه وهو السلسل العذب ، بل انه ليغص به الشارب وتقتحمه عين الرائى .

فذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلى بها حيث يجمل الادلاء ، ويجدر الافناء ، ويصدع برأيه حيث تعترك الآراء ، وعندئذ يسيل كالسيل اذا اجتاح جنبات الوادى .

قال : « لاتحدث بفقهك من لا يشتهيه فتؤذى جليسك . ومن قطع عليك حديثا فلا تعده فانه قليل المحبة للعلم » . وقال فى احدى خطبه : « ان الكلام كثير ومحكمه يسير وان الكلام لا ينتهى حتى ينتهى عنه وان خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبى يوسف وهو يمحضه النصيحة : « من جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب الا عن سؤاله ولا تضم اليه غيره

فانه يتشوش عليـه جواب سؤاله •• ومن ناقشك من العـامة والسـوقة فلا تناقشه فانه يذهب ماء وجهك » ••

على هـذا النحو ظلت حلقة أبى حنيفـة ثلاثين عاما تعمل فى مؤتمرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتلقون المسألة فيقسمونها أقساما ويتولون كل قسم أياما وليالى بالتحليل والتعليل ، حتى اذا قعـدوا قواعدها راحوا يفترضون الفروض التى قـد تقع فى المستقبل ، وتتـداولها أدمغتهم كأنما تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسة ، فتخرج أحكامها على أيديهم كالجنين الحى •• وانتشرت موجة الافتـراض والتفـريع فان ما لاتكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول • ولئن صح قول ابن عجـلان : (اذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مفاصله) فان حلقة الكوفة كانت تعرف هذه القاعدة ولا تحتاج اليها • ومع ذلك سلمت مفاصلها • ذلك بأن الأسئلة لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها كثر • ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وانما يصدر بعد البحث فى المؤتمر . ولم يك وليد الفكرة وحدها وانما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها فكيف لاتوجد القوانين الموضوعة ، والعقول الدائبة على البحث ، حلولا للاشـياء ••! ان الضعف الانسانى يجبره طول المران والايمان والتعاون والاخلاص • ولقـد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبينن العلم وانهم لفاعلون •

ذكر ذاكر أمام أبى حنيفة قول الشعبى (لا أدرى نصف العلم) فرشقه بكلمة لاذعة قال : (فليقلها مرتين ليكون له كل العلم) !•

وجرى حديث هذه الدروس فى شبه الجزيرة وفى العالم الاسلامى كافة، وشاركت الخمس والخمسون حجة التى يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة فى اذاعة أنبائها ، فالشيخ فى مكة والمدينة فى كل عام تقريبا يناظر ابن جريج فقيه مكة ، والأوزاعى فقيه الشام ، والليث بن سعد فقيـه الفسطاط ، بل الليث يعمل على الخروج للحج اذا خرج أبو حنيفـة ليناظره •• والشيخ يجلس فى المسجد الحرام يفتى أهل المشرق والمغرب ، وكبار الناس حضور ، لايرى أصبر منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة ، وهو كل الليل والنهـار فى طلب الآخرة حتى لقد شوهد عشر ليـال لايهدأ

الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعليم • والنـاس يزدحمون حوله فى المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيبهم ويفتيهم كأن المسائل فى كمه يخرجها فيتناولها اياهم فى أدب يأسر القلوب !•

كان يفتى يوما فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق امام الشيعة ــ الذى قيل انهم رووا له ٤٠٠ كتـاب ــ ففطن أبو حنيفـة له فقام وقال : (يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآنى الله أقعد وأنت قائم) قال له: (اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائى) •

وفى مكة احتاج الوالى الى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبى ليلى : اكتب فكان اذا كتب هذا شيئا أفسده هذا حتى اذا قدم أبو حنيفـة على الامير قال الامير : احتجنا الى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفـة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبى ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدرا أن يقولا شيئا • وقال أحدهما للاخر بعد أن خرجا : أما ترى هذا الحائك جاء فى ساعة فكتبه • قال له صاحبه : (لا تقل الحائك فان الحائك عندى من لايقدر أن يكتب هـذا القدر ويستروح الى سب العلماء) •

فاذا ذهب الى المدينـة لقى زعيمهـا الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة لايكلم أحدا الا قطعه ولكنه يرفق اذ يكلم مالكا : كانا يتدارسان بعد العشاء فى مسجد الرسول حتى اذا وقف أحدهما على القول الذى قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة • ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة فى مجلسهما !

قصدا يوما الى الحرم النبوى معا ومالك قابض على يده يمشيان فلما بلغـا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله . وكان مالك يجلس سفيـان الثورى دون المجلس الذى يجلس فيه أبا حنيفة • ولا عجب فان سفيان كان يقدم أبا حنيفة ويمشى خلفه ، واذا سـئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذى يجيب •

ومع ذلك كان أبو حنيفة يرهق مالـكا بحجاجه . قال الامام الليث : (لقيت مالكا فى المدينة فقلت له : انى أراك تمسح العرق عن جبينك . قال : عرقت مع أبى حنيفة . انه لفقيه يامصرى . ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن قبول هذا الرجل منك . فقال أبو حنيفة : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقـد تام) .

ومع ذلك كان مالك يقول « ما أحلمه » . ولولا حلم أبى حنيفة عليـه لما تركه يتفصد عرقا !

ترى أية لحظات فى تاريخ الانسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الـكواكب فى جوار النجم الأكبر الذى مايزال يبعث شعاعه الى الوجود الانسانى ! امام مصر ، وامام دار الهجرة ، والامام الأعظم ، فى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم !.

فأى رجال .. وأى خيال ..

وهكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ فى اتسـاع الدائرة واشتهار المدرسة .

هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد امام مصر ، ومالك ، والأوزاعى ، وابن جريج ، وجعفر الصـادق ، وابن اسحق صاحب المغازى، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى ليلى، وابن شبرمة ، والحسن بن عماره ، وحمزه المقرىء ، والجرجانى عبدالكريم ابن محمد ، وقتـاده المحدث ، وحماد بن زيد امام البصرة ، وأبو مقـاتل السمرقندى ، وخارجة بن مصعب امام سرخس ، والنضر بن محمد ، ومسعر ابن كدام ، وعمر بن ذر ، وعمرو بن عبيـد ، هؤلاء الزعمـاء الفـكريون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الاسـلامية بالنـور وكانت لهم مع أبى حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواؤهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين ، فكانوا يرون فى بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطـالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم فى الكوفة أو فى البصرة أو فى مكة أو فى المدينـة خلاصات التفكير الاسـلامى فى كل

أرجاء الامبراطورية الاسلامية الى دراساته ، فيلقحها بلقاح جديد ليطبعها بالطابع العالمى الشامل . حتى اذا جادله سعيد بن أبى حجر ذات يوم قال : يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة ! » .

حقا لقد انتهى اليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ ما فات من أسماء ، وأن تتصفح ما فى الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القائمة الذهبية بمنابع الفقه الاسلامى وروافده لاتكاد تنقص شيئا . تلتقى تياراتها فى مدرسة الكوفة منبعا أو مصبا ..

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة ، فيها أسلمت دولة بنى أمية روحها ، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة المفكرين روحا جديدا أمدها بأسباب الحياة .

الباب الرابع

المفكر

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

قرآن كريم

ارتفع الفكر الاسلامى فى هذه الحلقة الى أسمى ذرا الادراك ، بينما كان العالم المعروف يسدر فى جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأستاذ الفرد ، بما لم يجىء به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، يشيع فى الناس مقولاته كما تشاع الأنوار معلنا آيات التسامح والتيسير والحرية . تسامح بين الانسان وأخيه الانسان ، وتسامح بين المخلوق والخالق ، ثم حرية فى الآراء والأشياء لايحدها الا العقل والعدل وعمارة الدنيا .

حرية فى الدنيا ومغفرة فى الآخرة اذا تحققت أولاهما وقام الأمل فى أخراهما كانت الحياة جديرة بأن نحياها والآخرة حقيقة بأن نرجوها ولا نخشاها ـ فليست الحياة نكالا للاحياء ، ولا الآخرة جحيما مروعا ، وانما الدين يسر ، وعلى الناس ألا يقنطوا من روح الله ، وألا ييأسوا من مغفرته للخطيئة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال « رحمة مهداة » ما خير بين أمرين أحدهما أيسر الا اختار ما هو أيسر . وان لنا فى رسولنا الأسوة الحسنة .

وهذا الأستاذ الشديد فى حق نفسه ، الرفيق فى حق الناس ، اذا خير بين التيسير عليهم والاعنات لهم فان خياره فى اليسر بلا مراء .

فعقيدته فى الايمان أنه يتم (بالتصديق بالقلب والاقرار باللسان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر) .

فاذا صدق قلبك بالله وأقررت بايمانك بلسانك فليهنك أنك مؤمن . ولا بأس على ايمانك اذا لم تقم بالأعمال التى أوجبها الدين أو التى دعا اليها ، أو اذا ارتكبت وزرا غير الشرك بالله سواء أهملت الفروض كالصلاة والزكاة أو عمل الخير عامة أو ارتكبت المعاصى .

واذا ارتكب الانسان كبيرة من الكبائر ـ كالقتل أو الزنا أو السرقة ـ فلا يفقدن الأمل فى عفو الله فهو اذا استغفره قد يغفر له ، ولا أحد يستطيع

أن يتيقن أن الله معــذبه عليها بل هو ما زال من المؤمنين (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

بل ان الأجمل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهادة فذلك كما يقول الأستاذ (أفضل لخصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن . والاخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة .. والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة .. وجميع ما أمر الله به من فرائضـــه فى جنب الاقرار بهذه الشهادة والتصديق بها أصغر من البيضة فى جنب السموات السبع والأرضين السبع ..)

أما الشرك فظلم عظيم لايغفره الله ، وفيما عداه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان .. ومن قال لا اله الا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله .

وعسى الله أن يتوب على الناس .

ولئن (خلق الانسان ضعيفا) ان عليه أن يعمل صالحا فى الدنيا ويتوب عن الخطايا مستبقيا على نفسه نعمة الايمان آملا فى الغفران يوم الحساب .

تلك مقولات أبى حنيفة وهذا تسامحه ، فى حين كان الخوارج يقولون حول الكوفة والبصرة وفى كل مكان انه لا ايمان لمن لم يعمل ما أمر الله به ، فترك الصلاة كفر ، وعدم الصيام كفر ، ولا ايمان لمن صنع ما نهى الله عنه . فالقتل كفر والزنا كفر ، وأما المعتزلة فكانوا يقولون ان من لم يعمل بما أنزل الله فاســق : لا هو مؤمن ولا هو كافر ! فى حين كان هؤلاء عنــد المعتزلة والخوارج فسقة أو كفارا ، كانوا عند أبى حنيفة مؤمنين يجمل الدعاء لهم ، والرجاء فيهم والأمل فى أن يتوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل ــ وهم جماهير المسلمين غير المعصومين ــ وعلى ذلك قال مقولته الجامعة (أهــل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الايمان ترك شىء من الفرائض) ولا كبيرة مع الاستغفار . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولم يذهب مذهب جهم بن صفوان فى القول بعــدم وجوب الاقــرار بالايمان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء الثقة . ولم يذهب مذهبــه

فى الجبر وهو قوله ان الانسان مسير لا مخير محكوم عليه بأعمال الطاعة أو المعصية بل كان يقول (لاجبر ولا تفويض ولا تسليط . والله لايكلف عباده ما لا يقيقون . ولا أراد منهم ما لا يعلمون . والله أعلم بما نحن فيه ـ والصواب الذى عنده .. ونحن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب) .

ذهب مالك والشافعى وابن حنبل مذهب أبى حنيفة فى أن ترك العمل بالأوامر الدينية لايكفر المؤمن ، فالناس يعاملون تارك الفرائض ويزوجونه ؛ ويرث فيهم ويرثونه ، لكن الأئمة المذكورين مع ذلك قالوا ان الايمان يقوم على التصديق والاقرار والعمل أيضا ! فانه داخل فى الايمان ! ثم قيل ان الايمان باق مع فوات العمل ! مع أن العمل لو كان ركنا وانتقض ، انتقض الايمان وزال !

ومن أجل ذلك راح البعض يفسر العمل فقال : ان من أجزاء الشىء ما لاينعدم الشىء بانعدامه كالشعر واليد والرجل للانسان والأغصان للشجر فاذا انعدمت بقى الجسم حيا ! وقيل ان العمل ثمرة الايمان تتبعه وتوابع الشىء قد يطلق عليها اسمه على سبيل المجاز ! وراح بعض آخر يقول انالعمل المطلوب .. هو عدم العمل .. أى عدم ارتكاب المكفرات مثل السجود للاصنام ..! أما ابن حنبل فقال بتكفير تاركالصلاة دون غيرها منالفرائض !

ويرى أبو حنيفة أنه لاتفاوت بين الناس فى الايمان لأن الايمان لايزيد ولا ينقص ! لايزيد بعد اذ كمل ، والزيادة ليست اتماما للايمان لأنه من دونها بلغ الكمال وهو يتم بمجرد أن صدق المؤمن بالله وأقر بايمانه ، ولا يزيد اذا تكرر الاقرار .

فلا تخف اذن منافسة الناس فى ميدان الايمان ، ولا تخف تثريبهم ؛ فكل مؤمن ككل مؤمن .

وما دام الدين لله . والغفران مأمولا منه ففيم يقول الناس بتكفير الناس . ان ذلك كله متروكله سبحانه ، واذا كان اللازم فىالايمان الاقرار والتصديق دون العمل ، فحساب الناس عن الأعمال مرجأ الى يوم الحساب.

وعلى المسلمين أن ينظروا فى أمورهم وأن يذكروا الله فى حيـــاتهم ولا يتعرضوا للفتن •

ولذلك فليس من رأى الأستاذ الخوض فى أمر قتلة على وعثمان فتلك دماء طهر الله منها يده ــ على حد تعبير الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز لما سئلا عن قتلى صفين ــ فليتطهر من الخوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم أى الفريقين كان على صواب . أو كمـــا قال أبو حنيفـــة عمن يخطئون من المسلمين عموما « •• لكننا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) حتى يكون الله سبحانه وتعالى يقضى بينهم ، وانما نرجو الله لهم لأن الله عز وجل يقول انه لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . ونخـــاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم) .

ومن أجل ذلك نسبوا اليـــه (الارجاء) وهو ما يترجمه المستشرقون بالفرنسية (بالتأجيل) وفى الانجليزية (ترك الأمر لله وحده) •

كان بالمسجد يوما فدخل عليه طائفة من الخوارج شـــاهرين السيوف فقالوا : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين فان أجبت نجوت والا قتلناك . قال: أغمدوا سيوفكم برؤيتها ينشغل قلبى • قالوا وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل باغمادها فى رقبتك ! قال سلوا اذن • قالوا جنازتان بالبـــاب احداهما رجل شرب الخمر فمـــات سكران والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت فى ولادتها قبل التوبة : أهما مؤمنان أم كافران ؟ فســـألهم : من أى فرقة كانا ؟ أمن اليهود ؟ قالوا : لا .قال: من النصار ؟ قالوا : لا . قال : من المجوس ؟ قالوا لا ــ قال ممن كانا ؟ قالوا من المسلمين قال قد أجبتم •

قالوا هما فى الجنة أم فى النار ؟ قال . أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هو شر منهما (فمن تبعنى فانه منى ومن عصـــانى فانك غفور رحيم) وأقول كما قال عيسى عليه السلام (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) •

فنكسوا الرؤوس •• وانصرفوا •

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجداله القوى الاعتراف بأن مرتكبى هاتين المعصيتين مسلمان • وأضاف أن الله يغفر لمن يعصى رسله ، فالعصاة عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد فى جملتها وتفصيلها وما يزالون •

فأى ضمان للرقاب كان ذلك الضمان ، فى وقت كان الشك فيه فى الايمان مهدرا للدماء •

أيا ماكان الرأى فان لأبى حنيفة ــ وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة ــ هذه اليد العليا على المسلمين اذ آمنهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المتقين منهم ، ولم يقض على أمل غير المتقين فى يوم الحساب ، وبهذا حببت الحياة للاحياء ، ولم تحتوشهم زبانية العذاب فى الحياة الدنيا ، قبل أن تستقبلهم بالمغفرة ، ملائكة الرحمة فى الحياة الآخرة •

وبعد فما هو طابع فلسفة أبى حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذى يتحصل فيه كتابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذى تديره فى بساطةفتتمكن من كل ما وراءه ؟••

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هذه الشخصية هو التيسير ، والتسامح والحرية •

حرية وتسامح وتيسير بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبين الناس، وفى الأقوال والأفعال والاموال • والعبادات والآراء • وفى البيع والشراء • وفى كل الاشياء •

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف يوما لماذا قضى برأى أبى حنيفة وقد كان يخالفه فيه فقال : كنا نخالفه لنستخرج ماعنده •

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدهم على أن يخرجوا ما عندهم لتقوى شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوغهم •

ففى ذات يوم انتهى معهم الى رأى فى مسألة ــ وكان تلميذه عافية الأودى غائبا ــ فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها .

ولئن كان أفلاطون قد علق على باب مدرسته (لايدخل علينا من ليس له عقل هندسى) فان أبا حنيفة طالما قال (اللهم من ضاق بنا صدره فان قلوبنا قد اتسعت له) .

ولقد طالما قال (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) .

افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس الى أن نودى بالظهر ، فكان اذا قضى لأحدهما على الاخر قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر عندما نودى بالظهر .. فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال لا تطمعن بالرياسة فى بلد يكون هذا بها ..

وبهذه الحرية التى كانت لهم من أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم بذاته ، فمكنت للمدرسة أسباب النجاح . قال رجل : أخطأ أبو حنيفة . فقال آخر : كيف يخطىء ومعه أبو يوسف وزفر ؟ ثم عدد بقية من التلاميذ وقال : من كان هؤلاء جلساؤه لم يكد يخطىء لأنه ان أخطأ ردوه .

وكثيرا ما تجد فى المسألة الواحدة أربعة أقوال لكل من أبى حنيفة وأصحابه أقوال فيها وقد ترجح آراؤهم رأيه .

فى هذه الحلقة كان الأستاذ يقول منذ أكثر من ألف ومائتى عام ما لم يقله الناس الى اليوم فى انجلترا وفرنسا ! وما يزال فقه المذاهب الباقية يعارضه : ــ ان من حق المرأة أن تجلس على كرسى القضاء .. قاضية فيما تقبل فيها شهادتها !..

كان يقول ان من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها ممن ترغب . بكرا كانت أم ثيبا ، دون تدخل وليها ، لأن ذلك تصرف منها فى خالص حقها ــ ولئن كان لوليها حق الاعتراض فى حالة عدم كفاءة الزوج ، ان أبا حنيفة يقيد هذا الحق بعد جواز استعماله اذا حملت الزوجة حملا ظاهرا أو ولدت.

وكان يقول ان البكر البالغة لا يجوز لأحد أن يجبرها على الزواج بينما تجيزه المذاهب الأخرى •

فى هذه الحلقة كان الشيخ الجليل يقول ما ينفرد به الانجليز اليوم فى شرائعهم من أن الحجر على السفيه أو ذى الغفلة غير جائز لأن فى الحجر عليهما اهدارا لآدميتهما . بينما يرى غيره الحجر صيانة لأموالهما تحكيما لقوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) — أما أبو حنيفة فيشرح رأيه بأن مالك المال انسان حر بالغ عاقل مكلف بكل التكاليف الشرعية ، ولم يسقط عنه شيء من الواجبات فكيف يمنع عنه ماله ! واذن فالنص يريد أن يكون منع المال عنه تأديبا له ، والانسان فى أول أحوال البلوغ قد يفارقه السفه لقربه من زمن الصبا . ولكن بعد تطاول الزمن به لابد من أن يستفيد رشدا . فحسبه حبس ماله عنه حتى تصل سنه الى خمس وعشرين .

أما عن الحجر على السفيه بعد البلوغ رشيدا فيقول : لا أحجر عليه لأن النص انما ورد بمنع ماله عنه لا بالحجر عليه فى التصرفات . وأما قياس الحجر على منع المال فهو قياس الأعلى على الأدنى . اذ غاية منع المال عنه ابطال نعمة زائدة والحاقه بالفقراء ، والفقر لا ينافى الاهلية ولا الانسانية ، أما الحجر عليه فهو الغاء عباراته بعدم ترتيب آثارها عليها ، و فى هذا ابطال ولايته وأهليته والحاقه بالبهائم ، وتجريده من نعمة أصلية من أكبر النعم وأجلها وهى البيان الذى يمتاز به الانسان عن الحيوان .

وامتدت ظلال الحرية عنده فتعدت منطقة الفقه الى عالم الاقتصاد . فلئن كان العلماء المحدثون قد دقوا الطبول لحرية التجارة فى العصر الحديث ، ان مبادئهم لم تكن خافية على أستاذ الكوفة ، الذى يأبى التدخل فى قانون العرض والطلب ، ولا يجيز التسعير الجبرى على الناس . ووجه قوله كما روى الشافعى هو « سد باب التحكم على الناس فى أموالهم التى لهم حق التصرف فيها كيف شاءوا » • قال عليه الصلاة والسلام (لا تسعروا فان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق) والثمن حق العاقد اليه تقديره .

ولا ينبغى للامام (الحاكم) أن يتعرض له الا اذا تعلق به ضرر للعامة ، لكن الأستاذ اذ يعترض على أن يتحكم الحاكم فى أثمان العروض يعترض على أن يتحكم أصحاب العروض فى العروض ، فلا يبيح احتكار الأقوات ، اذا أضر هذا الاحتكار بالناس أو ضيق عليهم .

ولا ينفــرد الناس بعطفه على أقواتهم بل يشمل عطفه قوت الحيوان ؛ فتلك حالة دفاع عن المصلحة العامة يفضل فيها النظام على الحــرية . كما يفضله فى حالة الفتنة فلا يسمح ببيع السلاح خشية الأذى .

وتناهت به الحرية الى أن أصبح عدو القيد حيثما وجد القيد . وآيــة ذلك ما ذهب اليه فى نظام الوقف باعتباره قيدا لحرية الناس فى تداول المال .

فلقد ذهب الى حد القول ببطلانه . ومن نسبوا اليه أنه يجيزه قرروا أنه يجيزه فى ثمرة العين الموقوفة لا فى العين نفسها ، فانها لا تخرج من ملك صاحبها وتؤول الى ورثته بعد مماته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيجوز له أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه فى شأن الثمرة كلزوم النذر ، يبتغى به من نذره ثواب الآخرة ، ولا يمكن اجباره عليه بحكم القضاء .

لكأنما كانت بصيرته تخترق العصور من خلال الحجب ، وترى الرأى الحى الذى تأوى اليه أفئدة الناس بعد قرون وقرون .

***

ويطول بنا السرد لو رحنا نتقصى وقائع التيسير فى تفكير أبى حنيفــة فلنقتصر على بعض الامثال .

بين الكتاب العزيز فرائض الوضوء حيث قال « يا أيهــا الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجــوهكم وأيديكم الى المرافق وامســحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » .

فاذا طبق أبو حنيفة هذه الآية لم يحملها غير مــا حملت من الفروض الأربعة وهى غسل الوجه وغسل اليد ومسح الرأس وغسل الأرجل .

أما غيره فقالوا ان على المتوضىء أن ينوى أنه سيتوضأ قبل أن يتوضأ. وأنه اذا غسل عضوا قبل أن ينوى ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن ينوى . أما هو فلا يجعل النية فرضا ، وعنده أن الرجل اذا دخل الماء قصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صحت صلاته ، لأن الصلاة تتوقف على الطهارة وقد تمت له الطهارة .

وقالوا ان على المتوضىء أن يتبع ترتيب الآية : الوجه فاليد فالرأس فالرجلين ، أما هو فلا يرى ذلك فرضا .

وقال قائلون ان على المتوضىء أن يتابع غسل العضو بغسل العضو الذى يليه قبل أن يجف العضو الذى تم غسله . لكنه لا يرى ذلك فرضا . ولا كراهة عنده اذا لم يتتابع الغسل فلربما ينسى المتوضىء . ولربما يفرغ الماء فيعمد الى احضار غيره ويجف فى ابان ذلك العضو المغسول .

وبينما ينتقض الوضوء فى المذاهب الأخرى بمجرد لمس النساء والأجنبيات ، بشهوة عند البعض ، وبغير شهوة أى لمجرد اللمس عند البعض الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا ينقضه اللمس وانما تنقضه المباشرة الفاحشة ..

تلك نظرات الأستاذ المسماح ، يخفف على الناس أعباءهم ، ويكفيهم خطر اعادة الوضوء فى كل وقت ، وخطر فراغ الماء ، فى أزمنة وأمكنة لم يكن فيها الماء ميسورا كما نجده الآن .

وكما يسر الأستاذ على المتوضئين يسر على المصلين .

فهو لا يكلف من يصلى بأن يرفع يديه اذ يفتتح الصلاة ، وهو يجيز أن تفتتح الصلاة عنده بعبارة « الله أكبر » بلغة أجنبية وان كان المصلى قادرا على النطق بها باللغة العربية . لأن المطلوب هو تعظيم الله . وهو سبحانه وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط فى الافتتاح لفظ التكبير نفسه ، بل يصح بالتسبيح كقول المصلى « سبحان الله » أو بالتهليل كقوله : « لا اله الا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبية مع قدرة المصلى على قراءتها بالعربية ـ ولو أنه قيل انه رجع عن ذلك الرأى .

وكما يسر على المصلين المقيمين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاة الرباعية « ذات الأربع ركعات » وأن يجعلوها ركعتين . ولم يكتف بتجويز ذلك لهم كغيره بل أوجب عليهم التيسير ايجابا .. وحقيقة مذهبه فى ذلك أن الله لم يشرع فى السفر الا ركعتين فلا يلزم المسلم أن يصلى أربعا ، ولو نوى أن يصلى أربعا لا يقع فرضا الا ركعتان والباقى نافلة .

وتجاوز التيسير عنده العبادات ليتجلى فى أبهى مجاليه فى المعاملات . لقد انعكست أشعة الفكر العملى على كل فرع من فروع مذهبه وغدا (المعروف عرفا كالمشروط شرطا) وصارت « العادة محكمة » حتى اذا عمد تلميذه محمد الى وضع أحكام الصباغة لم يقتصر على تطبيق قواعد الفقه بل قصد الى الصباغين يدرس معاملاتهم بين ظهرانيهم .

وتوج الأستاذ سماحة الرأى وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملتقى يتجمع عنده وتصدر منه المعانى الرفيعة فى النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة فى القرن العشرين للميلاد . اذ كان وهو التاجر العريض الثراء يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبقى لنفسه منه الا قدرا محددا (أربعة آلاف درهم) هو مقدار نفقته . وما عداه لا يراه حقا لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سبق الفيلسوف الروسى تولوستوى بأحد عشر قرنا . وأضاف الى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذى لا يختص بماله تلاميذه ، بل يشرك فى أمواله الناس جميعا ، معلنا لهم أن ما يصيبونه منه ليس الا حقا لهم وان كان الله يجريه على يديه .

***

كان أسلوب الأستاذ الفكرى هو الأسلوب العلمى الحديث واليك بعض الامثال :

فالنوايا فى فقهه كالبواعث فى الفقه ليست هى الأسباب . والأحكام تبنى على الاسباب لا على النوايا لأنها ليست ظاهرة . فاذا ساءت النية وظلت خافية ، وحسن السبب وبرز للأعين ، فان التصرف يصح شرعا فى أمور الدنيا . وبهذا تجرى الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى اليقين لا على الريب . وعلى الحرية لا على التحكم .

وان من قواعده أن اليقين لا تزيله الشكوك :

فاذا كان زواج المتعة محرما شرعا لأن المقصود به استمتاع الرجل بالمرأة مدة من الزمن على غير ما يرمى اليه الزواج الصحيح من ارتباط الزوجين رباطا أبديا فقد ذهب البعض الى ابطال الزواج اذا كان قصد المتعة فيه مضمرا عند العقد . لكن الأستاذ يرى البحث فى النوايا مخطرة يكتنفها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار . واذا كان قصد المتعة خافيا عند العقد فكيف يتأكد منه الناس ! .

ولهذا أباحه وان نوى الرجل أن يبقى زواجه مدة نواها ما دام لم يذكرها فى العقد .

ومن الأحكام الشرعية أن المرأة اذا طلقت طلاقا نهائيا لم تحل لزوجها حتى تتزوج من سواه ثم تطلق منه . يريد الله بذلك أن يهذب أنفس الناس ويبين لهم أن الطلاق أبغض الحلال اليه فلا يستعمل الا عند انقطاع الأسباب وأن على من جازف بالطلاق يدفع مثلما اندفع فيرقب خيبة الزواج الثانى . والتسريح من الزوج ، وقبول الزوجة أن تعود اليه ، وهى احتمالات آخرها أعسر من أولها ، يتنقل فيها المطلق من مجهول الى مجاهيل ، تعذبه فكرة انتقال الزوجة على هذا النحو الذى تفزع منه الطبيعة البشرية .

ولكن ما القول اذا اتفق (الطرفان) والزوج الجديد على أن يكون الزواج الجديد طريقا للوصول الى الزواج القديم . وأن الزوج الجديد ليس الا (المحلل) الذى يعقد على المرأة فيتزوجها على أن يطلقها لتعود الى الزوج القديم .

هل يتحقق فى هذا الزواج قصد الشارع . أم هو غير مقصود لذاته . وانما مقصود به ذات السيد القديم ؟

فى هذه المسألة ذهب أئمة الفقه مذاهب شتى . وبحسبنا أن نعرض بعضا منها .

قال أبو يوسف : ان زواج المحلل فاسد ولا يحل للزوجة أن تعود للزوج القديم . وقال محمد : ان زواج المحلل صحيح لكن الزوجة لا تعود للزوج الأول لأنه يستعجل ما أخره الشرع فيعامل بنقيض قصده .

وقال مالك : ان زواج المحلل فاسد ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب الشهود ان علموا . وقال ابن حنبل : ان الزواج باطل .

أما الشافعى فله رأى وسط بين الآراء انتهى اليه بعد أن قدم الى مصر قال : اذا ورد عقد زواج المحلل مطلقا بلا شرط فيه وكانت نية الزوج أن لا يمسكها الا قدر ما يصيبها ليحللها لزوجها الأول فان الزواج صحيح ولا تفسد النية شيئا منه لأن النية حديث نفس وقد ينوى الشخص الشىء ولا يفعله . أما ان تزوج الرجل بشرط أن ينتهى الزواج بالدخول واللمس ليحلها من زوجها الأول فهذا العقد باطل .

تلك آراء الأئمة فى التحليل مختلفة كما ترى . وهى من قديم ليست محلا للاتفاق .

أرسلت امرأة الى رجل فزوجته من نفسها ليحلها الى زوجها فأمره عمر ابن الخطاب أن يقيم معها ولا يطلقها وأوعده ان هو طلقها أن يعاقبه .

أما الامام الشعبى فقال : لا بأس بالتحليل ان لم يأمر به الزوج .

وأما الليث بن سعد — امام مصر — فرأى رأيا رشيقا قال : ان تزوجها ثم فارقها لترجع الى الأول فان بين الثانى ذلك للأول بعد دخوله بها لم يضره .

وهذا الاحسان الكريم الذى يشير به الليث قد روى مثله عن أبى الشهداء وشهيد كربلاء حتى ليخيل للباحث أن صنيعه قد ألهم الليث فكرته جملة وتفصيلا . قالوا : ان الحسين بن على لم يتزوج أرينب بنت اسحق

رغبة فى مالها أو جمالها . فلقد كانت زوجة عبد الله بن سلام اذ خدعه معاوية فأنفذ اليه الرسل أن سيزوجه من بنته ، وأفهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها ضرة ، فطلق أرينب فى انتظار بنت الخليفة ! ثم مضى رسول آخر الى أرينب فى العراق يخطبها لولى العهد يزيد بن معاوية — وكانت قد شغفته حبا . فلجأ الى أبيه يستفتيه فدبر له الأمر على ما نرى — حتى اذا بلغ الرسول العراق لقى الحسين ، فقال له الحسين اذ عرف رسالته : انى كنت عزمت على الزواج منها وأردت الارسال اليها ولم يمنعنى من ذلك الا سؤال مثالك . فاخطب رحمك الله على وعلى يزيد ولتختر من اختاره الله لها فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت (اخترلى أرضاهما لديك ، قال : انما عليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك وانما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بدا من القول قال : «ابن بنت رسول الله أحب الى » .. فاختارته وساق الحسين اليها مهرا عظيما . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قال : من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب من أمره خلاف ما يهوى ، ولقد كنا بالملامة منه أولى حين بعثناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة درا ، فاحتاج اليها بعد أن أهدره معاوية ، وقصد الى الحسين يعلمه خبر ودائعه . فلما أخبرها الحسين قالت : هى عندى بطابعه الذى طبعه عليها ، قال الحسين لعبد الله : ادخل عليها وتوف مالك . قال : أو تأمر بدفعه الى جعلت فداك . قال : لا حتى تقبضه منها كما دفعته اليها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هذا مالك فشكر لها ، وخرج الحسين ففض عبد الله خاتم بدرة ، فحثا من الدر حثوات . وقال خذى فهذا قليل منى لك . واستعبرا جميعا أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذى سمع منهما فقال: .. أشهد الله أنها طالق ثلاثا .. اللهم انك تعلم أنى لم أستنكحها رغبة منى فى مالها ولا جمالها ولكنى أردت احلالها لبعلها . ولم يأخذ مما ساق اليها فى مهرها قليلا أو كثيرا وحاولا أن يرداه اليه فلم يقبله وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه . فتزوجها عبد الله وعاشا متحابين حتى قبضهما الله اليه .

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبى حنيفة أن العقد صحيح على الاطلاق ولو شرط فيه أنه (عقد للتحليل) أى صرح فيه بأن الزوج يتـزوج المرأة ليحلها لزوجها الأول .

تنحصر مطاعن خصـوم أبى حنيفـة فى هذه المسألة فى أنه يستمسك بظاهر النص حيث تقول الآية : « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويقولون ان الآية يراد بهـا مؤدى العقد وهو الاستمرار لاحرفية العقد وهى مجرد عمله .

لكن ثمة أمورا متفقا عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعمد اليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والاصلاح ما استطاع .

فالقبح الذى يستقبحه خصوم أبى حنيفة فى المحلل يستقبحه أبو حنيفة بقدر سواء ، والعقد عنده مكروه كراهة التحريم ، ثم ان دخول الزوج الثانى بالزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأة ترافعت اليه فى الموضوع وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة فى مسألة المباشرة ــ المس ــ مذهب شرذمة قليلين على رأسهم سـعيد بن المسيب لم يوجبوها ، فذلك مذهب لا يخفى أنه فى غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به قاض لا ينفذ لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالتنفيذ .

فلم يبق الا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبى حنيفة ، والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غـيرها من العقود كعقد الزواج ، وانما لكل امرىء ما نوى وقد سلك الطريق المفضية الى الزواج فى ظاهر الشرع .

ثم ان المحلل غايته أنه نوى الطلاق اذا وطىء المرأة وهو مما ملكه الشرع اياه . كما لو نوى المشترى اخراج المبيع من ملكه اذا اشتراه ، أو نوى فى عقد الشراء اتلاف المبيـع واحراقه ، أو اغراقه فلا يقـدح ذلك فى صحة البيع ، ولو اشترى عصيرا فى نيته أن يتخذه خمرا ، أو جارية وفى نيته أن يكرهها على البغاء . أو سلاحا وفى نيته أن يقتل به معصوما ، فكل ذلك لا أثر له فى صحة البيع .

فالتمسك بصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الدينية شيء وانعقاد العقد القانونى شيء آخر ، والدين لله ، والدنيا لنا .

واذا طبق الفقيه النص تطبيقا يحتمله ظاهر النص وصريح اللفظ ، فليس ذلك احتيالا كما يحتال أرباب الحيل الممقوتة ، مثل التحايل للربا ، أو لمنع الصدقات . كمن يفتى الرجل بأن يهب ماله لآخر اذا أوشك العام على الانتهاء ثم يستوهبه اياه فلا يتم عام علـى المال فى يديه ولا تسـتحق عليه الزكاة . وكالارتداد لفسخ الزواج . أو ذلك الساخر الذى حلف ألا يأكل رغيفا أو قطفا من العنب أو قمحا . فأحل نفسه من اليمين بأن أكل الرغيف الا لقمه ! والقطف الا حبـة .. ! وطحن القمـح وأكله خبزا . فذلك هـزل بارد لا يستساغ .

وبحسب أبى حنيفة فخرا أن التاريخ لم يرو عنه أنه سـخر براعته فى التخريج والتكييف لخدمة سلطان أو نصرة ذى جاه .

قال الشعبى : (لا بأس فى الحيل فيما يحل ويجوز ، وانما الحيل شيء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به الى الحلال . فما كان من هذا ونحوه فلا بأس به ..) وحضر سفيان الثورى مجلسا فلما أراد الخروج منعوه فحلف أن يعود ، ثم خرج وترك فعله كالناسى لها فلما خرج عاد فأخذها وانصرف .

ورأت امرأة عبد الله بن رواحة زوجها على جارية له فذهبت وجاءت بسكين فصادفته وقد قضى حاجته فقالت : لو وجدتك على الحال التى كنت عليها لوجأتك ! فأنكر ، قالت : فاقرأ ان كنت صادقا . قال :

شهدت بأن وعد الله حـق وأن النـار مثـوى الكافرينا !

قالت الساذجة : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى !!

وبلغ ذلك النبى فضحك ولم ينكر عليه هذا التحيل باظهار القـراءة لما أوهم به زوجته أنه قرآن تخلصا من غضبها لتفهم أنه ليس جنبا حيث لا يقرأ القرآن الا المطهرون .

ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكم فى فقه أبى حنيفة من الأصول التى تثور فى وجه الاحتيال • وكم باهى الفقهاء بالحيل فى حل مشكلات الايمان .

بحسبنا أن نستعرض أحد المخارج التى أدهش بها الليث بن سعد بلاط الرشيد : قالوا ان هرون الرشيد جرى بينه وبين زوجته كلام فقال لها « أنت طالق ان لم أكن من أهل الجنة » ثم ندم واستحضر العلماء من شتى الأقطار فلما اجتمعوا سألهم فاختلفوا .. وكان فى آخر المجلس شيخ هو الليث بن سعد سأله فقال : اذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم ، وأمر باحضار مصحف ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فلما انتهى الى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : أمسك يا أمير المؤمنين . ثم استحلفه بالله قائلا : انى أخاف مقام ربى فقال : ياأمير المؤمنين فهما جنتان لا جنة واحدة ! . قالوا فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ــ ولا جرم كان الستر يحجب كواكب القصر ! ــ فقال له الرشيد : أحسنت وأمر له بالجوائز والسلع وأمر له باقطاع الجيزة ، بل ولا يتصرف أحد فى مصر الا بأمره .

ورووا من حيل أبى حنيفة أن رجلا أتاه بالليل فقال : أدركنى قبل الفجر والا طلقت امرأتى . قال : وما ذاك ؟ قال : تركت الليلة كلامى فقلت لها ان طلع الفجر ولم تكلمينى فأنت طالق ثلاثا . وقد توسلت اليها بكل أمر أن تكلمنى فلم تفعل ــ قال الشيخ : اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر فلعلها اذا سمعته أن تكلمك واذهب اليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن . ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت : طلع الفجر وقد تخلصت منك . ! قال : قد كلمتنى قبل الفجر وتخلصت من اليمين

أما مخارج أبى يوسف فكانت غذاء شهيا للرواة . وسنرى فيما بعد بعض ما قدموا الينا منها .

فى فترة معاصرة وضع كتاب أسماه صاحبه (كتاب الحيل) نسبه خصوم أبى حنيفة الى أبى حنيفة وقابله الرأى الفقهى فى كل مكان بالاستنكار لما فيه من مخارج تؤدى الى الكفر الصراح .

ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحدا من صحبه لم يضعه فان مذهبه ومذهب صحبه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتابا له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا (ما وضعه الا ابليس) فقال عبدالله بن المبارك : « الذى وضعه أبلس من ابليس » وابن المبارك ــ كما قد علمت ــ تلميذ أبى حنيفة .

***

كان الأسلوب التعليمى لأبى حنيفة يضاهى الاسلوب التعليمى فى أحدث الجامعات من حيث التحليل والتعليل ، وتأصيل الأصول ، وترتيب النتائج مع التجرد العلمى ، تجرى فيه التطبيقات العملية على وقائع حية تنطبع فى الذهن وتنضبط فى الوصف ، لأن العمل وحده هو الذى يثبت العلم ويثبته ولهذا أنشئت نظم (الأقســام) فى الجامعات لتدريس التطبيقــات ، وهذه الدراسات العملية فى القانون تقابلها دراسة التشريح فى الطب . ودراســة المعامل فى العلوم وما اليها .

ولعلك لا تجد قضية كقضية (أم عمران) بين القضــايا التى يتدارسها الطلاب فى معاهد القانون ، استعرضتها مدرسة أبى حنيفة أيما استعراض ! شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناولت الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق .

كانت بأم عمران جنة وكانت بازاء جامع الــكوفة فمر بهــا رجل فتناوشا فقالت له : ياابن الزانيين .

وكان القاضى فى المسجد قد سمع السبب . فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه فى المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، حدا لأبى الرجل وحدا لأمــه .

وعرفت حلقة أبى حنيفة هذه الواقعة وهى على قيد أذرع من المحكمة فى المسجد الجامع فلم تهن فى انتقاد القاضى . وقلب استاذها له الأمــور اذ رد

قضاءه الى الأصول ، أو ان شئت تعبيرا عصريا فقل أخذ « يكيف الواقعة » و « يناقش التطبيق » وقال :

. أخطأ ابن أبى ليلى فى ستة مواضع .. !

الأول : أقام الحد فى المسجد و لاتقام الحدود فى المساجد .

الثانى : وضربها قائمة والنساء يضربن قعودا .

الثالث : وضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ولو أن رجلا قذف جماعة كان عليه حد واحد .

الرابع : وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد .

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان .

فالجنون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ، وطريقة المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضى بعلمه ، ومكان التنفيذ ، كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب فى الفقه الجنائى ، وثبت الى خيال الشيخ فور البديهة فى مكان الحادث ، وفى وقت وقوعه ، فعلمها تلاميذه .

كان ذلك شأن أبى حنيفة فماذا كان شأن القاضى ؟

وهو من هو فى تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، صاحب الرأى والأستاذ الاول لأبى يوسف ، وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء كانت تلمع اسماؤهم فى سماء العراق عامة وفى الكوفة خاصة ، شريك النخعى وسفيان الثورى وهو :

انه لم يقرع الحجة بالحجة ولكنه راح يقرع باب الأمير .

وشكا للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة بألا يتعرض لقضائه .

لكن أعداء العالم كأوليائه فى الحاجة اليه سواء فقد امتنع عن الفتيا أياما حتى قدم عليه رسول من ولى العهد يستنبئه فى مسائل فقال : أنا محجور على،وعاد الرسول الى الأمير وقال الأمير : قد أذنت له فقعد فأفتى .

سأل رجل أبا حنيفة عن فتح خوخة فى حائطه فقال : افتح مـا شئت . ولا تطلع على جارك وشكاه الى ابن أبى ليلى فمنعه فعـاد الى أبى حنيفة فقال : افتح فيه بابا ، فمنعه ابن أبى ليلى ، فعاد الى أبى حنيفة فقـال : كم قيمة حائطك ؟ قال : ثلاثة دنانير قال : اهدمه ولك على الثلاثة . فجاء ليهدمه فرفعه الجار الى ابن أبى ليلى فقال ابن أبى ليلى : يريد هدم حائطه وتسألنى أن أمنعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت فى جدارك قال الجار : كان فتح الخوخة أهون على !!

وهكذا حاور القاضى والخصوم بين يديه حوارا عمليا أخضع الأشخاص كالأشياء والآراء لسلطانه .

وفى ذات يوم اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل برأيه ، وأدلى أبو حنيفة برأيه ، وأدلى الحسن بن عمارة برأيه ، فقال ابو حنيفة : أخطأنا وأصاب الحسن .

وقال الحسن : لو شاء أن يقيم قوله ويردنى من قولى لأمكنه ، فعلمت أنه ليس أورع منه .

بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو يقول : « والله ما أدركنا أحدا تكلم فى الفقه أبلغ ولا أصبر ولا احضر جوابا منك وانك لسيد من تكلم فى الفقه فى وقتك غير مدافع ، وما يتكلمون فيك الا حسدا » .

الباب الخامس

التلاميذ

« العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت اذ تعطيه كلك من اعطائه البعض على غرر » .
(أبو يوسف)

آلت الى أبى حنيفة رياسة الحلقة وهو فى الأربعين بعد أن ظل عاكفا على أستاذه قرابة عشرين عاما سبقتها دراساته ورحلاته ، فاذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وان أول ما يعظهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للافتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهنى والاستعداد الروحى .

مرض أبو يوسف مرضا أشفق عليه منه فكان يتعبده حينا بعد حين ، وسار اليه آخر مرة فرآه مقبلا بعد أن أبل فرجع ثم قال « كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير . » فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبى حنيفة ، وقصد اليه الناس يتحلقون حوله ، وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر . فطوى السنين القهقرى واسترجع الذكر . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه فى نحو الثلاثين فى ضحوة العمر . والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصال من أستاذه ، وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا اليه صديقا سيره اليه بحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول فى رجل دفع الى قصار « وهو الخياط الذى يقصر الثياب » ثوبا ليقصره بدرهم ، فصار اليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره . ثم ان صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فرده اليه مقصورا فهل له أجر ؟ فان قال له أجر قل أخطأت . وان قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب فى صباه يعمل عند قصار صبيا « وكان أبوه على ماقيل خياطا » ولعل هذا سر اختيار السؤال ، فاذا عجز الأستاذ الحدث عن الجواب فى مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فتعسا للعلم الذى يدعيه .

ومشى الرسول يحث الخطى الى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب ، قال له أجره . قال أخطأت فأطرق مليا ثم قال لا أجرة له قال أخطأت .. وعميت الأنباء على الفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ .. وانطلق من مجلسه انطلاق السهم الى الرمية الى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك الا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى .

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلسا يتكلم فى دين الله ، وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب فى مسألة من مسائل الاجارات !!

أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى .

أبو حنيفة : ان كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه وان كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه .

أبو يوسف : !! .

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه . .!

وبكى أبو يوسف على نفسه مدرارا وعاد الى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة (اعلم ان العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لابد منه فى المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير) أو قوله (من تكلم فى شىء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت فى دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه وقوله (من طلب الرياسة فى غير حينه لم يزل فى ذل ما بقى) ولذكر قول النبى عليه الصلاة والسلام (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار) .

ولما تقدم حماد بن أبى حنيفة يوما ليصلى بالناس أخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره ، وقدم غيره ، فقال حماد : ياأبت تفضحنى ! قال « بل أردت

أن تفضح نفسك فمنعتك اذ لو صليت فقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر فى الكتب ويبقى عاره الى يوم القيامة ! » .

ولما أخذ يعلمه وجهه الى دراسة علم الكلام حينا ثم صرفه عنه فجادله حماد بقوله (ألست كنت تأمرنى به) قال « بلى وأنا اليوم أنهاك عنه » قال « ولم » ؟ قال يابنى ان هؤلاء المختلفين فى أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ثم قال « كنا نجتمع وكأن الطير تخفق على رءوسنا .. وقد بلغنى أن قوما يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام .. وانما همة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه فاذا بلغ الكلام هذا الحد ،فتركه خير» . وفى عبارة أخرى من عباراته «كنا نناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » .

واذا كانت هذه نظرة أبى حنيفة الى العلم وأهل العلم وهذا انصافه للعلم من نفسه ومن ولده ، فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا : بل انه ليضيف يدا الى أياديه عليه فيهديه ، ويجادله بالتى هى أحسن ، لا بقوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته فى نفسه مواجهة المستزرى لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه ، ليكون فى حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد كان هذا الصنيع الذى صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفتة الأستاذ الموفق يهدى فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ ، لكان محتملا أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدى ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظا غليظ القلب ، ولم يمكر بتلميذه ذلك المكر الجميل .

وما أعظم ما يؤتى حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له تكون أطول أهلك عمرا فأعطاه وكرمه وقربه . .

عاد أبو يوسف الى الحلقة بعد أن تعلم فى هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول (العلم شىء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت اذ تعطيه كلك ، من اعطائه البعض على غرر) .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء .

***

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة . وبفن آخر هو الطريقة المثلى للاقناع هو الذى يحدث الجرس الأخاذ ، والرنين النفاذ ، ويحيل الصعاب بسائط .. هو تقديم العلم فى وعاء من الحب ، وخروج الكلام من القلب الى القلب واستيلاء المتحدث من فوره على الروح .

وليس يستطيع ذلك الا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع فى طاقتها أن تبعث الى أنفس الناس شعاعا دافئا دافقا كأنه الكهرباء .

قال الحسن البصرى للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه « ياهذا .. ان بقلبك لشرا أو بقلبى » .

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس . كما تجلت فى مناهج الدرس فسيطر على تلاميذه بالقصد والترفق ، والصبر والترفع فلم يكن يؤكل فى حلقته لحم الصديق ولا لحم الخصم . وسما عن مناوأة خصومه الى الاستغفار لهم ، فملك ألباب تلاميذه وبهر أبصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يستقيان من ماء التسامح ، وأن المؤاخاة فيهما فيهما أدنى الى الهدى من الملاحاة ، وأن الغيبة قذف فى السامع قبل أن تكون قذفا فى الغائب ، وأنها على كل حال لعنة على المغتاب .

وتواضع الأستاذ لله فرفعه فى أعين الناس وتلاميذه ، وبصروا منه بما يبصر به المقربون ، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به وأعزه بقرباهم و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثورى يأبا عبـدالله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ـــ ما سمعته يغتاب عدوا له ! قال : هو أعقــل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل : يتكلمون فيك ولا تتكلم فى أحد ! قال « هو فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك ببضع قرون قال الحـكيم الفرنسى لا بروييـر « ان التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرهـا وتجليها »

ولما سئل الفارابى . .أنت أعلم أم أرسطو ؟ قال « لو أدركته لكنت احسن تلاميذه » وقال : « قرأت السماع لأرسطو اربعـين مرة وأرى أنى أحتاج لمعاودته » .

قيل لأبى حنيفة اتق الله ، فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال « يا أخى جزاك الله خيرا ، ما أحوج الناس فى كل وقت الى من يذكـرهم الله تعالى وقت اعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داخل وخاض فى حديث الناس الا قطع عليه خوضه .. وكان يقول (اياكم ونقل مالا يحبه الناس من حديث الناس . عفا الله عمن قال فينا مكروها ورحم الله من قال فينا جميلا . تفقهوا فى دين الله . وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم) .

قيل له هذا الذى تفتينا به هو الصواب بعينه . قال « ما أدرى عسى أن يكون الخطأ بعينه » .

وقال يهذب تلميذه يوسف السمتى قبل خروج يوسف الى البصرة (.... ومن مرض من اخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك .. ومن تـكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن والجميل .. وأفش السلام ولو على قوم لئام) ثم كشف له عن السحر الذى يسحر به الفقيه مناظـريه قال (ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك واياهم مسجد ، وجرت المسائل

أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافا ، فان سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا . فان سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك . فان قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء . فاذا استمروا على ذلك وألفوه ، عرفوا مقدارك وعظموا محلك . واياك والحقد وان غدروا بك . وأد الأمانة وان خانوك)

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه اياه . ويقول اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله اليك .

كان هذا الخميص الصائم الذى لا تجد فى داره الا البوارى يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبعث البضائع الى بغداد فيشترى الأمتعة ويجمع الأرباح ليشترى بها حوائج المتعلمين ، يقوتهم ويمونهم ، ثم يدفع اليهم الدنانير قائلا « أنفقوا فى حوائجكم ولا تحمدوا الا الله سبحانه وتعالى فانها أرباح بضائعكم . مما يجريه الله لكم على يدى .. »

فلنختصر فى السرد ولندع عنان الحديث لأبى يوسف حيث يقول :

(كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال ، فجاءنى أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى يا بنى لاتمدد رجلك مع أبى حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج الى المعاش . فقصرت عنه كثيرا فى الطلب وآثرت طاعة أبى . فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدى . فجلست ولما انصرف الناس دفع الى صرة وقال : استمتع بها فاذا فيها مائة درهم . وقال لى : الزم الحلقة فاذا فرغت هذه فأعلمنى . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت) .

كان أبو يوسف فى نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع . جاء الى الحلقة تاركا حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . وقد قصصنا من قبل بعض آثاره

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعا : العلم الدينى ، والعلم الدنيوى ، وأموال تكاد لا تحصى ، ووظيفة دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هرون الرشيد .

فلنرجع البصر الى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله (لا حسد الا فى اثنتين ، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها) وبهذين الحكمة والمال را ح يتحدى الحسد ، فيمنح المال فى سبيل الخير ويقضى بالحكمة ويعلمها ، منحا ليس له أول ولا آخر . وتعليما يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أريحيا مرهف الحس ، يدرك وحى العين ودخائل النفس . يعطى من فوره ، ويعطى فى الميعاد ، وقديما قال الحكيم العربى (خير الخير أوحاه) . وأقدم منه قول الرومان (ان من يعطى فورا يعطى مرتين) . والبدار فى ذاته فضل ، ثم هو يعطى فى غيبة الناس فلا يشهد على العطاء الا نفس صاحبه ، فى أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتذال .

وأى رشاقة كرشاقة اليد العليا وهى تدفع المال الى اليد الأخرى دون رنين أو التماع . فتقدمه فى صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب فى اسماح يسكر البصر ، كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه ان هو خلع ثياب التحرج من شأنه . لكن القريب عنده كالغريب ، وكذلك الذى ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدين الذى لا يجلس فى ظلاله ! يصنع الصنيع دائما فى استخفاء وعلى استحياء ، وفى تلطف كتلطف الملتمس يقطع بأنها السجية المطبوعة لا السجية المصنوعة ، فاذا شكر أنكر الشكر ونقله الى شيخه حماد .

قال أبو يوسف (وكان يعولنى وعيالى عشرين سنة واذا قلت له ما رأيت أجود منك ، يقول : كيف لو رأيت حمادا . وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه) .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصى بين الأستاذ ورواده .

قال لأبى يوسف ينصحه (وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة فى العلم) وتلك النصيحة هى الصنيع الذى طفق يصنعه طوال حياته ، لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ ، وعن الغائب حتى يرجع ، وعن غير المريض وغير الغائب ، لم يعرف عنه أنه اختص ولده حمادا بعطف كما اختص تلاميذه . قال عصام : (لم يكن لأحد من الحق كما لأبى حنيفة على أصحابه . وكان الذباب اذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه) .

والذى صنعه مع أبى يوسف فى مرضه والذى صنعه معه لما جلس للفتيا لم يك الا أمثالا ميمونة العواقب . ففى واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده . وفى الأخرى دعاه الى الاستزادة من العلم ، فأوتى منه بسطة سمت به الى أرفع الذرا بين أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله : (انى لأدعو له قبل أبوى وسمعته يقول أنى لأدعو لحماد مع أبوى).

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه بينما يسوى أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه . وكلاهما على الانصاف . لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه .. وعلى النحو الذى كان يدركه أبو يوسف بقوله : (تغمد الله أبا حنيفة برحمته ، وجازاه خيرا ، فانه أطعمنى الدنيا والآخرة اطعاما) .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطائه ان الحديث نفسه ليشى بمقدار ما كان يتوخاه من اخفاء — والوقائع التى سردنا من قبل تنم عنه وتقرره — فكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه .. لقد أعلنها الحسن بن زياد اذ كان يلازم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السمتى . واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وان كان فقيرا أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صيبا من العطاء حتى يتعلم ، فاذا تعلم قال له : قد وصلت الى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا

أنه كان معروفا بالافضال على كل من جمعتهم به الأسباب . ورواية أبى يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مرارا ، ويسره اسرارا ، غير ممنون ولا مجذوذ ، ولا مصرد ، مما لا ينقع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء. ويزيده سموا أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها فى ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالانفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالانسانية العليا هى المبدأ والمنتهى . والأمل المشتهى . لا حسن ثواب الدنيا . ولا حسن مآب الآخرة .

ويرتفع الفضل الى سماء ما طاولتها سماء اذ يصنعه صاحبه ليمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى ، نعنى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى فى حياة أبى حنيفة ، وهى قيام مدرسة كبيرة منظمة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده فى الانفاق وفى التهذيب ، فى اخلاص للعلم كأنه العبادة .

جاء اليه رجل بكتاب شفاعة ليحدثه فقال (ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . لا يكون العالم له خواص . لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه) .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروة المفكر هى الفكر ، فاذا خلف المفكرون من بعدهم أفكارا فقد أنجبوا ، أما ما يخلفون من عروض وأموال فهى كسائر ما يخلف الموتى من العروض . تتناهى فى النقصان بقدر ما تتناهى فى التداول والتعامل . وأما الفكرة فهى النور تتناهى فى الانتشار كلما تداولتها الأنفس ، وتتناهى فى الازدهار كلما أرهقها الأذى ، فلا على صاحب الفكر

اذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الانبياء لا يورثون ، وان ما يتركونه صدقة للعالمين فاذا سألت عمن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذوذ فى السؤال .

انما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لايفنيان كما يفنى المال ويزول ، وان حصل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى ، الاكما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد اذ تطبق عليهم أجفان الثرى

انما الفكرة شيء الهى فهى كائن حى لا يموت . وهى الجوهر الحر الذى يورث . ويدفع الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء — ولا يخلد المفكر الا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع ، ولهذا كان تلاميذ أبى حنيفة قطعا من نفسه ، ربط بينها وبينهم كما ربط بينها وبين أستاذه فى شجرة النسب العلمى ، يذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدى ربه . قال « ماصليت صلاة منذ مات حماد الا استغفرت له مع والدى وانى لأستغفر لمن تعلمت عليه علما ، ومن علمته علما » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان الا من البوارى . وهو هو الذى يوزع الدنانير آلافا مؤلفة . وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال ، قال : الله تعالى للعيال .. وانما قوتى أنا فى الشهر درهمان .. ثم قرأ « وفى السماء رزقكم وما توعدون » .

***

أما الظاهرة الثانية فهى أن الرجل الكبير يعنى ، أول ما يعنى ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفى تاريخ مصر الحديثة خلد جمال الدين الأفغانى بغير مؤلفاته ، وبتلاميذ سموا الى أرفع ذرا المجد فى ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبى . كما كان محمد عبده فى الاصلاح الدينى وسعد زغلول فى الاصلاح السياسى وابراهيم الهلباوى فى المحاماة ، مع قليل من

الرجال والمؤلفات ، هم السجل الذين حصر التاريخ فيه تركة الزعيم الفكرى العظيم الوارد من الأفغان أو من ايران ، وورود آباء الامام الأعظم .

ولأن يبنى الرجل الكبير رجلا كبيرا خير على الوجود البشرى من كل آثاره ، فكيف اذا بنى رجالا كبارا عظماء .

فلعل النفس الانسانية خير ما عبرت به يد القدرة الالهية عن الله سبحانه . والرجل الصالح يبنى الممالك ويقيم المذاهب ويشرع الشرائع ويبنى الرجال من جديد ..

ان من الرجال من كان أجدى على الانسانية من احدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة ملهما عندما احتضن أبا يوسف ومحمدا وزفر والحسن وباقى الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم ، فى جهد يومى متصل ، يهدف الى غاية كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع فى النهر الجارى ، فيربو الوشل ، وتصبح الحفنات من الماء فيضانا زاخرا كالسيل العرم ، تزحم البحر وتعلن وجودها فى أجلى مجاليه ! .

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الانسانى قوة عارمة ، ومن العمل الفردى عمل فيلق ، ومن الجهد اليومى جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طنينا فى سمع التاريخ وأنغاما فى فم الزمن .

بهذا بلغت مدرسة أبى حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فاذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة الكبار ، فيضعون أيديهم على مصاير التشريع الاسلامى فى شتى بقاع الدولة ، وغدت الأسماء التى تلوناها قبل ، يتحلق أصحابها حول الشيخ ، سجلا باسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول . وبدأت حركة التدوين على طراز الانتاج الضخم الذى بدأه محمد فى كتبه وجرى على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة فى الزمان كله ، واذا بالمدرسة تخرج نساكا وزهادا الى جوار الحكام .

فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويالها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلا الى السعادة فى الدنيا ، لا تبتلا محضا أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس على ارتياده فى سبيل الله ، ومن أجـل الحياة ، مدفوعين بالدافـع الربانى والدافع الانسانى معا .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدولة الاسلامية فى أزهى عصورها حضارة ، أعظم رجالاتها جدارة ، نعنى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا فى عين الدولة وأعين الناس ، اتجاها فكريا جديدا هو الاتجاه المفرد الجـديد بالاسلام .

***

كأن العناية الالهية قد كشفت لأبى حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف فى قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة (لكأنى بك قاضيا) ! وهى النبوءة التى قال عنها الرشيد فيما بعد (لعمرى ان العلم يرفع دنيا ودينا) وترحم على أبى حنيفة ثم قال « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف فى السابعة والثلاثين عندما توفى أسـتاذه كما كان أرسطو فى السابعة والثلاثين اذ مات أفلاطون . واذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك . فان رياسة زفر للحلقة بعد أبى حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم فى حلقة أبى حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدى والهادى والرشيد ، وبلغ مجده أوجه فى عهد الرشيد اذ نقلت له عن النظام الفارسى وظيفة قاضى القضاة أو عالم العلماء (موبذان موبذ) . كان هـو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة فى شتى أرجاء الدولة وكان يؤاكله ويحج معه ـــ عدلا له على بعير ـــ ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد (جاءت به معتجرا ببرده) وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر .

كان معه كأرسطو مع الاسكندر ، تلميذين فى عمر الورود لأستاذين فى خريف العمر . كتب له فى كتاب الخراج يقول : (وقد كتبت لك ما أمرت وشرحته لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فانى قد اجتهدت لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين نصحا ..)

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين . وصلى عليه الرشيد عند ما مات وأمر بدفنه فى مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيده أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق فى فراشه . سمعه سامع فقال: لو شاء الله أن يجعل العلم فى جوف طير لفعل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثا فى السماع الواحد ثم يقوم فيمليها على الناس ! ..

أتيح لفقه أبى حنيفة على يد أبى يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح اذ يهيىء لها القدر رجالا فى دست الأحكام . وهى ظاهرة تولاها المؤلفون الغربيون فى السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقها رسميا بالقضاء وبالافتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه فى كراسى القضاء . حتى صار الناس فى بغداد يسمون مذهب أبى حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبى حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة ــ كما عبر أحد خصوم أبى حنيفة ــ (لأن العلم والسلطنة حصلا معا) .

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بداية أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفى بالعراق والمالكى بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفى لقاحا جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو اللقاح العملى الذى يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة وبفقهاء الأمصار وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها فى الحضارة .

وفرض أبو يوسف سلطانه فى كل مكان حتى انه ليجعل ابنه يوسف قاضيا على الجانب الغربى من بغداد واماما للحجيج عندما حج الرشيد وفى صحبته أبو يوسف . كان شريك خصم أبى حنيفة يحج فى نفس العام وسأل عمن يصلى بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبى يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه وياله من سلطان على صاحب السلطان ! كان اذا حزبت الأمور فزعوا اليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات .

زعموا أن زبيدة غاضبت هرون الرشيد — فحلف الرشيد يمينا بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته ، فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله فى نفسه ، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حبا وشغفها ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، والظلام فى عين الرشيد هو العمى فى أعين البلاط .. ! فاشتد الخطب وفدح الأمر ، وكلما مالت الشمس فى الأفق ، ودنت حمرة الشفق ، سرت فى أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ودارت أعين الحاشية كالذى يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله ؟ ..

ألا ان نصر الله قريب . ان فقيه البلاط بين رجال البلاط ! يا أبا يوسف أفتنا فى أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !

فليأت أبو يوسف بالخوارق . قال .. فلنبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد .. فانه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد ..

والله سبحانه وتعالى يقول (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لامامة المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فان أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهل مكة : ياأبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت فى صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط الوحى وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت الينا فى الشعاب والأودية فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف فى حضرة الخليفة .. !

أفلم يكن الرشيد على حق اذ يقول : « هاتوا لى مثله » !

خوصم اليه أمير المؤمنين الهادى فى بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له . لكن الحق كان لخصمه . قال الهادى لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى تتنازع اليك فيه ؟

قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين ان شهوده على حق . قال الهادى : وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه . قال الخليفة أرد البستان عليه .. !

لكنه اذ يحتال ليرد الهادى بستان الرجل اليه لا يحتال من أجل من دونه : شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوما فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلا : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته يقول أنا عبدك ، فان كان صادقا فلا شهادة للعبد . وان كان كاذبا لكذلك .

بل انه ليحلف الرشيد فى قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات اليهم .

جلس الهادى يوما للمظالم وبجواره عمارة بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من عمارة فى شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم ـــ ادعى أنه غصبها منه . قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال: ان كانت الضيعة لى فهى له ، وان كانت له فهى له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا : كتبت أم جعفر الى أبى يوسف تقول ما ترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء الى أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادف هواها ، فبعثت اليه بحق فيه فضة ، فيه حقاق مطبقات ، فى كل واحدة منها لون من الطيب ، وفى

جام دراهم وسطها جام فيه دنانير فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها) قال أبو يوسف (ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن ..)

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتحرج عن قبولها أو لكافأ المهدى بأضعافها .

وفى سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : اللهم انك تعلم أننى لم أجر فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ، وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، كلما اشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه) وعرف الناس وصيته ...ر...١ماية ألف لأهل مكة ، و ...ر...١ وماية ألف لأهل المدينة ، و ...ر...١ لاهل بغداد و ...ر...١ للبلد الذى جعل صبى القصار أستاذا للرشيد يهب مئات الآلاف ! نعنى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيبانى فلم يكن من الخلفاء كأبى يوسف ومع أنه تتلمذ على أبى يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة فى آخر أيام أبى يوسف حتى وفاته . ولى قضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه وأدناه :

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبى حينفة وأبى يوسف وفقهه هو فى كتب هى السجل التاريخى للمذهب ، أما الكتب المنسوبة الى أبى حنيفة (العالم والمتعلم وكتابه لعثمان البتى عن الارجاء والفقه الأكبر ووصية أبى حنيفة ان صحت) فهى تدور حول العقيدة ، وأما كتب أبى يوسف فقد قيل انها بلغت أربعين كتابا لم يصل أكثرها الينا ، وبحسبه شاهدا على عبقريته كتابه « الخراج » الذى كتبه للرشيد يبصره بالحكم جوابا لطلبه — وأما كتب محمد فهى المعروفة بظاهر الرواية السير الكبير والسير الصغير (فى فقه الحرب) والجامع الكبير (وهو فى التفسير والأصول) والجامع الصغير (وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة) والمبسوط أو (الأصل) وسمى كذلك لسبقه

الكتب الأخرى فى التصنيف والزيادات وزيادة الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة (وهو كتاب رواه الشافعى) وقد قرىء أكثرها على أبى يوسف .

واذا كان الفقه الحنفى قد دان به الثلثان من أهل الاسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقى أوربا وبقاعا من روسيا وأصبح مذهبا رسميا فى مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة فان لهذه الكتب الصغرى فى عددها تلك اليد الكبرى فى آثارها .

ان المبسوط وحده يقع فى ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير ..! كان الفقه بحاجة الى الصون فحماه محمد بذلك السور المنيع الذى تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق .

وكان عمل أبى يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازما للفقه عند النشأة الأولى ليأتلف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولتحمله الى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازما ليوجه الفقه فى طريق الخلود فتراه العصور جميعا .

ولما عين محمد فى القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضى القضاة » أن يكون فى الرقة بعيدا عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان ، اذ هيأ له نجاة من زحمة العاصمة ولجاجة الحكام ، فتفرغ للعلم حتى عهد فى أعماله الشخصية الى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف وكان يحيل أهله على الوكيل ويقول (لا تسألونى عن حاجة من الحوائج فان فيها شغل قلبى وخذوا ما بدالكم عن وكيلى فانه أفرغ لقلبى) .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهرى بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن مؤلفاته (هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر) .

رحل محمد الى المدينة فى حكم المهدى (سنة ١٥٨ الى سنة ١٦٩) ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطا » وتعتبر روايته للموطا

من أجود رواياته واختلط بالكسائى فى عهد الرشيد فعلمه الكسائى اللغة وعلم الكسائى الفقه .

قالوا : جلس الكسائى يوما يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضى القضاة فقال للرشيد هذا الكوفى قد استفرغك وغلب عليك . فقال الرشيد : يا أبا يوسف انه ليأتينى بأشـياء يشتمل عليها قلبى . لكن جـواب الرشيد عن الكسائى لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبى يوسف يقول : ياأبا يوسف هل لك فى مسألة ؟ فقال « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقـال للكسائى : تلقى على أبى يوسف فقهـا !! قـال الكسائى : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق ان فتحت الدار (وفتح الهمزة فى أن) قال أبو يوسف اذا دخلت طلقت . قال أخطأت ياأبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال الكسائى : ان قال أن وجب الفعل الطلاق وان قال ان فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لايدع أن يأتى الكسائى الى الرشيد .

ولما حشر الشافعى الى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمـل محمد فى انقاذه . وتوثقت بينهما عرى الود فبهر لبه .

وقف رجل على الشافعى فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل ياأبـا عبد الله خالفك الفقهاء قال (وهل رأيت فقيها قط الا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فانه كان يملأ العين والقلب . وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسـن) وقال فيه (كان محمد اذ أخذ فى المسـألة كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفا ولا يؤخر) وقال (ليس لأحد على منة فى العلم ما لمحمد على) .

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد الى منزله ويخلو به الى آخر الليل .

قرأ الشافعى كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فتعلم منها فقه أبى حنيفة وفقه الأقدمين فها هو ذا محمد تلميذ أبى حنيفة ينهـل من

مالك وينهل منه الشافعى الذى علم ابن حنبل، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة ، ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعا .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الايوبى أن عالما يهوديا كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وانما نسبها لنبى أشهد انه على حق . فأسلم .

قال الملك : ان هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه ومسائله معروفة ، فان من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالما بارعا بستة علوم أولها الكتاب العزيز والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيدا لهذه العلوم لم يعرفه الا تقليدا .

أقبل الرشيد يوما على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا الا محمدا ، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال « كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها . انك أهلتنى للعلم فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال (من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار) وانه انما أراد بذلك العلماء ... » قال الرشيد صدقت يامحمد .

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويالها من عقيدة ! لكن الاسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما فى حضرة الرشيد وضد الرشيد .. وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء ... !

لقد كان الرشيد حفيا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم .

بلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه ، يعدل تماما موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه « السير » بعث الأمراء ــ أولاده ــ لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل ابن يحيى البرمكى من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيى من معقلة ، وتوشجت المودة بين يحيى والرشيد زمانا حتى رفع السعاة عن يحيى مايريب ، فسىء به وضاق به ذرعا ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مسئولا ، و (المسلمون عند شروطهم) كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجا ودعا محمدا واقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد .. ما تصنع بالأمان ، لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا !

وطلب الرشيد فقيها آخر هو أبو البخترى فقرأ الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وان شئت فقل ماية فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضى القضاة !

ذلك أبو البخترى الذى اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئا ؟ قال : حدثنى .. عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام ..!

وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد ..!

ولم يقف هناك اذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء .. وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا . وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد . وكان هرون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع انه كان يبعث الى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع الى الفقهاء وكان انفاقه على العلماء اغداقا ، يعهد بأولاده اليهم بل كان يخدمهم . وفد عليه أبو معاوية الضرير وجىء بالطعام فأكل بين يديه. وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال : لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك ياأمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفى سنة ١٨٩ مات محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائى فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد (دفنت اليوم اللغة والفقه) .

***

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة يجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما « الصاحبان » .

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدما فى مجلس الامام وبقى طيلة عمره مشتغلا بالعلم ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمرات الى الدنيا فلم يتعرض الى ما تعرض له الصاحبان (أبو يوسف ومحمد) .

كان أقيس الحنفية . وكان أكبر التلاميذ سنا فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات فى الثامنة والأربعين من عمره خلفه فى رياسة الحلقة أبو يوسف

شك رجل فى طلاق زوجته فسأل شريكا القاضى فقال : طلقها ثم راجعها وسأل الثورى فقال ان كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، ثم جاء الى زفر فقال هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذة أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال : أما الثورى فقد أتاك بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل . قلت : لا أدرى أصاب ثوبى بول أم لا . فقال : بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات ..

شهد النضر بن اسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال لأنه يبيع الصلاة (اذا

كان اماما فى المسجد يتقاضى فى الشهر دينارين) فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء (اذا كان قاضيا بأجر) فأجابه شريك فاذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتى !!

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكا فلما بصر بهم قال : وراءك ياحماد .. لست كالنضر . أنت وأبوك تزعمان أن ايمان شر أهل الأرض كايمان خير أهل السماء ..

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة ، ويأتى بالدليل من غير حشو فاذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مرة وهو مستند الى اسطوانة المسجد منتصبا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب كثيرة اركض فى أيها شئت وانتهى الأمر بأبى يوسف الى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة الى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الامام الأعظم : (هذا الامام من أئمة المسلمين فى حسبه وشرفه وعلمه) .

وفى سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه الى لقاء امامهم فى الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤى فقد تتلمذ بعد وفاة الامام على أبى يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب (المجرد لأبى حنيفة ، وأدب القاضى.والنفقات والفرائض والوصايا . والخصال) وعمل فى القضاء وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى — وهو الذى كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبى حنيفة ليمير بناته — أضحى له مماليك يكسوهم مما يكسو به نفسه .

كان يخشى الله فى فتواه : أفتى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفا لديه فاكترى مناديا يقول : ان الحسن أخطأ فى تلك المسألة حتى عاد اليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل الى الحق .

وكان اذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فاذا قام من مجلس القضاء عاد الى ما كان عليه من الحفظ !! فاستعفى من القضاء .

وفى سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبى حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة فبغداد كلها فالبصرة ، وتخرج ابنه اسماعيل عليه وعلى أبى يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقى ببغداد وبالبصرة والرقة .

وتخلى يوسف بن خالد السمتى للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدى اليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيهما مندل ـ وكان أصغر وأشهر ـ قال مندل موجها نظر الخليفة : هذا حبان .

ويحيى بن زكريا مات قاضيا على المدائن للرشيد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى ..

وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاما وقضاء بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة فى دين ! .

كان جالسا للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ الخصوم : فلما فرغوا لبى دعوته .

ولما عينه أبو يوسف فى قضاء الكوفة بعث الى أهلها يقول : ياأهل الكوفة انشروا دفترا لتكتبوا نوادر قضاياه .

وأما عبدالله ابن المبارك فكان اماما فى الفقه وبطلا فى المعارك . كانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركيا وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ .. ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلى : يروى عنه الامام أحمد بن حنبل . تولى القضاء للرشيد ببغداد وواسط .. وقيل تزوج ببنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائى أرفع الناس صوتا فى الحلقة ينقطع الى العبادة ويخرج من الدنيا فى حياته ! .. أرسلت اليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فاعادها لمصدرها ، وردها الرسل مع بدرة تماثلها وغلامين قال لهما . ان قبل البدرتين فأنتما حران فذهبا اليه قالا : ان فى قبولك عتق رقابنا قال : انى أخاف أن يكون فى قبولها وهق رقبتى فى النار . رداها اليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطينى أنا ...

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده اسماعيل ابن حماد (أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار الى أبى يوسف وزفر) .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة فى مذهبهم ! وفى سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل ..

وقيل بالتخيير فى فتواه | ان خالف الامام صاحباه
وقيل من دليله أقوى رجح .. | وذالمفت ذى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبى حنيفة وتلاميذه . جاءوا الى الحلقة غفلا مغمورين . منهم الحفاة والعراة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمدا للفقه الاسلامى، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التى نقلها اليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصرا أساسيا فى نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع عملى وعمق فكرى . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم : (.. قال عمر : تفقهوا قبل أن تسودوا ، وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا وما هو الا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان ..)

كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور الذى سيجىء .. يدركـون وهم بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسون وهم معه ما نحسه نحن الآن معهم ، وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقـرأ هوميروس فيقول (كلما قرأت هوميروس نظرت الى نفسى لأتحقق مما اذا كنت قد ارتفعت عشرين قدما فوق الثرى ..!)

الباب السادس

في العراق

« الناس سواسية كأسنان
المشط لا فضل لعربى على
عجمى انما الفضل بالتقوى »

حديث شريف

وبعد فانا لا نفهم حياة أبى حنيفة اذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالانسان ابن آبائه واقربائه . وأرضه وسمائه وأشياء ليست أعصابه التى يجس بها أجزاء نفسه فحسب ولكنه يفكر بما فى حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

ان هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها .. ! وما أصغر ذلك الشىء البديع المسمى بالانسان الى جوار تلك الأشـياء الجليـلة التى تسمى بالدنيا . وان كانت من دونه ليست هى الدنيا .

ذر قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول فى التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايـع الناس عليا . واندلع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهما أهل البصرة . وأظفر الله عليا فى واقعة الجمل فنازلت جيوشه فى صفين جند الشام اذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه حتى اذا افتر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محـكما كتاب الله . وقبـل على التحكيم فخذله الحكمان . وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله « لم حكمت فيما هو حق لك ؟ » وهزمهم بالنهروان . وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة . وأخفقت المؤامرة فى عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء) الحسين بن على وعبدالله ابن عباس وعبدالله بن عمـر وعبدالله ابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر) ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار الى معاوية .

ثم قال : فان هلك فهذا وأشار الى يزيد .

ثم قال : فمن أبى فهذا وأشار الى السيف .

قال معاوية . اجلس فانك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف . والسيف أصدق انباء . ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح . وبعثت الشيعة (أنصار على بن أبى طالب) من أهل الكوفة الى الحسين يبايعونه فسار اليهم مع أهله ، فقتل هو ، واخوته ، وأبناء عمه فى كربلاء .

وفى سنة ٦٤ سارت جنود الشام الى مكة تقاتل عبدالله بن الزبير . اذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن . أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبدالملك بن مروان . وولى عبدالله الزبير على الكوفة المختار ابن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن الزبير ودعا المختار ابن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبدالملك بن مروان بجيشه الى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فما هو الا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت الى عبدالملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبدالملك ! .

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبدالله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب حتى سالت الدماء الى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه العلماء ، ومنهم الشعبى فقيه الكوفة ، وسعيد ابن جبير فقيه البصرة ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى . وتزاحف الجمعان فى دير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عمن عفا عنه كالشعبى وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك الى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الاسلام فى افريقيا .

وفى سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفى سنة ٨٩ فتحت صقلية وفى سنة ٩٣ خفقت أعلام الاسلام على سواحل الأطلسى فى الأندلس . ووقفه موسى بن نصير فى ربوعها يفكر فى فتح أوروبا..فأشاروا عليه بالتلبث : فمكث يقول : أما والله لو انقادوا الى لقدتهم الى رومية !

وفى الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفى ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن على بن الحسين فقتل . وفى سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل فى خراسان .

وفى سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارت الثائرة بين بنى أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكد يهزم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم فى خرسان ودخل مروفى سنة ١٣ نيسابور سنة ١٣١ . وجاء رسله الى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس) سنة ١٣٢ وكان التيار فى الكوفة يجرى نحو أولاد على بن أبى طالب فحوله أنصار العباسيين الى بنى العباس . وهرب مروان الى مصر حيث قتل .

وفى سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبى حنيفة بثمانى سنوات .

فى هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الاسلامى وبلدانه : أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف . وأما البصرة فقد أمر بانشائها الفاروق عند ملتقى دجلة والفرات (سنة ١٤ — ١٧) لتكون معسكرا تلتجىء اليه الجيوش من برد الشتاء فبنى أبو موسى الأشعرى مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشعب وازدهرت فيها الحضارة . وفى سنة ٣٦ وقعت فى ضواحيها وقعة الجمل ، وفى سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفى (سنة ١٧ — ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبى وقاص بعد موقعة القادسية أن يبنى الكوفة فأقيمت فى موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر ، وصارت ملتقى الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها فى وسط المدينة وبنيت الى جواره دار الأمارة . فلم يكد ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياما وأكواخا وعمرها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكد تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولاتهافى السنوات الأخيرة لحكمة ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار على ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحوا من عشرين عاما (سنة ٧٥ ــ ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد ذلك . حتى اذا ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها ، وهى قصبة الاقليم فى عهد بنى أمية ، وعاصمة الدولة فى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشيعوا الحضارة الاسلامية العربية فى الاقليم . لكن العراق صنع بالوافدين اليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الاقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عربا وان كانت تحمل حضاراتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الاسلام

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبى وقاص الى عمر قائلة انه لا يحسن أن يصلى !! وشكت البصرة أبا موسى الأشعرى لأن له غلاما ختارا (غادرا) هو كاتبه زياد بن أبيه اذ كان له مائدة وبرذون وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم واليا .

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محاربا فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة بن شعبه . وطردوا سعيد بن العاص .

ولما قدموا على عمر يشكون سعدا ــ قال « من يعذرنى من أهل الكوفة ــ ان وليتهم التقى ضعفوه وان وليتهم القوى فجروه » . قال رجل « أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » قال : « من هو » قال : (عبدالله بن عمر) (ابنه) قال : « قاتلك الله : فمنذ اليوم لا أسميك الا المنافق » وقال « المغيرة يا أمير المؤمنين ان التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه . والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره » ــ قال « صدقت فأنت القوى الفاجر .

فاخرج اليهم » . وفى فتنة ابن الأشعث بذل رجال الشــورى نصحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيرا فكتب الى الخليفة : (والله ان أعطيت أهل العــراق نزعى لا يلبثون الا قليلا حتى يخالفوك . ولا يزيدهم ذلك الا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا اليه فقتلوه ان الحديد بالحديد يفلح)

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان ، قرنا وربع قرن من الزمان واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصــبا وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة على فاتخذوا فى الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية : ومــا يزال لهم بضعة عشر من الملايين فى العالم الاسلامى كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقــولون انه وصى النبى على المســلمين . وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول انه معصوم ، وغلا البعض فألهــوه ، وانشعبت الشيعة شيعا وأفراقا حار بها بنو أمية حربا ضروسا ، فقتلوا أولاد على وأسباطه كل قتلة .حتى كان الأمير الأموى يقول لان يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل على !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفى عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة فى الانحسار . وشرعت الريح تجرى رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بنى العباس . فألف على ابن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبى وكانت الكوفة مقر احدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان ، فلما دخلت جيوش أبى مسلم اقليم العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الثوار .

بويع لأبى العبــاس بالخــلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة لقواده . فأخذ يعمــل فى ظمأ لا يرتوى ليكون جديرا فى التــاريخ باسمه

(السفاح) وراحت سيوف العباسيين تحصد الرءوس وتقذف الجماجم ، ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور .

بدأوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، وانثنوا الى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثلة ثم وجدوا ضالتهم فى قبر ابنه هشام . فألفى السفاح جثته لم تبل بعد فضربها بالسياط .. وصلبها .. وحرقها . ثم ذراها فى الهواء !.

فى هذه المجزرة التى ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة الى افريقيا ، لم يكد يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . عبر البرزخ الى أسبانيا سنة ١٣٩ ليمكن فى اثنين وثلاثين عاما لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ — على التعبير الحربى — رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار) والأجيال ، تلك المدنية التى ازدرت فى فجر التاريخ فى أثينا واسبارطه وفارس وروما وبيزنطه ، فانبعثت حركة الاحياء العلمى RENAISSANCE من مرقدها بعد أن مرت فى طريقها — كالرسالات وكالبرد المائية والهوائية — بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما اليها .

ولقد يخيل الى الناظر أن هذه القلاقل كادت تنزف دم الأمة ، لكنها فى الواقع كانت اهتزازات الجسم الذى يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحانا لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ، وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما فى ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجماعا لقوى الأمة ، واستعدادا لعهدها الجديد ، فلقد أدت الامبراطورية السياسية التى وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هى حسبها ، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجىء وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التى ألفها كيان الأمة الا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الاسلام نفسها فى الوجود ،بأسلوب جديد .

واذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الاسلام بالغزو فقد كان على الدولة الجديدة فى وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الاسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بآثارها فى مهاب الرياح الأربع .

فتعالوا اذن أيها المفكرون ، واحدا اثر واحد ، واسكبوا فى تيار الحضارة الذى لا يتوقف الا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من النور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب الى الابتكار . وليكن منكم الغواصون فى أعماق الحكمة والعلم ... لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل . فصلوا الماضى بالحاضر . وقولوا كلمة الفكر . ان كلمة الفكر هى العليا .

انطلقت العقول الاسلامية ظمآى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمة . فنقلت الى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية . ولئن صح أن اسطفان وماريانوس وابن ابجر قد ذكروا العرب فى أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن ابجر رئيسا للمصلحة الطبية ، وأن خالد بن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ان هؤلاء لم يكونوا الا طلائع الركب الضخم ، الذى بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم الى العالم الجديد فى عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيبا للمنصور ولبيمارستان جند يسابور .. ثم توالت الأسماء تترى : قسطا بن لوقا وسيد النقلة : روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلةودمنة وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى . ينقلون من الفارسية . ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية . وابن وحشيه ينقل من النبطية كتبا فى الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان ليجيئوه بالكتب ليعربوها . وجاء المأمون بعده بصنع أكثر مما صنع . وانتقل الروح العلمى الى وجوه الدولة واذا ببيت كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن وثابت

بن فرة ، يدفعون لهم شهريا خمسماية دينارا للترجمة والتعريب كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسى (الكتب الفارسية) وابن ماسويه من جامعة جند يسابور للقسم اليونانى (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ولنشر ما تتضمنه المترجمات من علوم . وأنفذ الى بلاد الروم سلما صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهم ليبحثوا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف الى ثروة الأمة التى كان ينحصر تراثها العلمى ــ فى الجاهلية ــ فى علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب الى فيثاغورس واقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط وأرسطو ، والى النظم السياسية والادارية . وانطلق الفكر الاسلامى فى حريته الى أبعد الحدود حتى لنرى بيتا كبيت (أبى الجعد) فيه ستة اخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب عنى الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة وأضيفت الى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى واسطفان بن باسيلى ينقلون السريانية الى العربية . وعلى بن زياد اليمنى واسحاق بن زيد ينقلون من الفاسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق الى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم . ولم تبق الترجمة سبيلا للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فاذا بابن الهيثم يبيع فى كل عام نسخا ثلاثا من نسخة هى (اقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطى) بمائة وخمسين دينارا يعيش منها طول العام .

لم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التى وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التى يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها فى جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد فى سنة ١٤٨ مرضا ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه

(جورج أو جرجس) من جامعة جند يسابور وأبل على يديه فانزله وعلماء جند يسابور أرفع المنازل فى بلاطه ، وورث حفيده جبريل هــذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . واذا كان جرجس أول من ترجم للمنصـــور فان أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمة للعقول .

فالقه الاسلامى الذى دوى صوت إمامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثرا للوثبة الاسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وان المرء ليتساءل لمــاذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كــل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الاسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها الى ذلك التخليد عمارة أو نحتا أو تصويرا كما صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الاســلامية التى يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعيا أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الاسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت الى حلقة الكوفة أصوات الفقهــاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلســان الزعيم الفكرى الذى قدرته العناية الالهية لنصرة الدين . وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التى عاصرت فى تحضيرها وظهورها حياة أبى حنيفة العلمية ، وهى قيام الدولة العباسية ، ثم انبعاث تلك الفكرة التى خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بانشاء المدينة التى لم ير مثلهــا الزمان الى ذلك الزمان « بغداد » .

ليست مصادفة تلك التى جعلت بالعــراق حلقة أبى حنيفة كالجامعة فى النصف الأول من القرن الثانى بالكوفة حيث كان محمــد بن على بن عبد الله بن عباس وابنه ابراهيم الامام من بعده يمهدان للدولة الجديدة فى الكوفة وفى خرسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس .

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ،

وأن يعمد أبو جعفر الى الانتفاع به فى المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويتناهى الرشيد فى الأعجاب به فيكلل بالمجدهامات تلاميذه .

ليست هذه كلها مصادفة ، ولكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر ، يسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام . وانها يد العناية تحرك الانسانية نحو مصايرها المحتومة . تريد لرسالة الاسلام أن تصل بين عهدى الحضارة .

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثا فى التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضى فى ظلام الليل المتكاثف، فحملت الحضارة الاسلامية الى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق فى الغرب سنة ١٤٩٣ الا بعد أن كانت دولة اسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية فى الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٩٣ . واذا كان فتح المسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والاحياء RENAISSANCE فى العصور الحديثة ، فأى مجد للاسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى وفتح حربى !

هذه النصره التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس ، لم تكن لها مشابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .

كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما ، فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب أحد . وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدى الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، ان الفقه الاسلامى كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وخصوبة تربته ووفرة منابعه ، افاق ألواح

جوستنيان الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت الى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقى الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص الديباجة . تجمعه العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المستشرقين أن هنالك « آثارا لا تنكر INDjABIE » من تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الاسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبى حنيفة خاصة ، والفقه عامة ، واذا كان لأبى حنيفة بصر بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدرة من المحيط الجغرافى والاجتماعى الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فانه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه فى حلقته وفى سائر الحلق بالمسجد الجامع اسلاميا صراحا فى منابعه وسواقيه ، لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشىء أجنبى أو عالج أثرا أجنبيا .

واذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام . فلا أثر للفرس ولا للرومان فى الشريعة ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثر الا بعد ان تقدم الخصوصيات المتشابهة التى يستند اليها الزاعمون فى الأصول والفروع . وفى اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه الينا القائلون بوجود هذه الآثار «التى لا تنكر» . كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعا ، كما يقول رجال القانون .

ولبس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة فى مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه فى الشرائع فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشرى توافق العقل . واذا تشابه العرف فى البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات .

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر فى عهد أبى جعفر أى بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبى حنيفة

قد بلغت أوجها فى مسجد الكوفة ، وكان أستاذها فى أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاما .

أما (الشافعى) فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ، حتى اذا انتقل الى بغداد ومصر فى خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التى ادعاها المستشرقون . والـذين تتبعوه فى دراســاته ومقولاته يدركون كيف، كانت كلها اسلامية خالصة .

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة . وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفى سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاى ما قرره مؤتمر واشنطن اخيرا فى سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الاســلامية مصدر للقانون مستقل عن مصــادر اليونان والرومان .

***

لم يكد المنصور يلى الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حــربا ضروسا فى العراق وفى كل مكان ، كأنما كتب القلق على هــذا الاقليم حتى ولو صارت اليه مقاليد الأمور .. وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالبا أرجح ! انها قد تكون ثورة جهــال فيظهر فيهــا العلم ، أو ثورة على الحــق فيخرج الحق منها أبلج وضــاح الجبين كالشمس بعد انفراج السحاب !! ولقد تكون ثورة دهماء فتكشف عن انتصار المعانى الرفيعة فى الحرية أو فى الدين أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك ..!

ان الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائما . أو كما يقول الشاعر :

(وحسبك داء أن تصح وتسلما) .

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شيء ، من الكفر والايمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم : ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح . ولا عجب أن تنجلى تلك المتناقضات عن تحرير أوربا ، فأنشأت الثورة ايطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الانسانى من عقاله ، وجمعت بين الدين والتقدم . وأعلنت حقوق الانسان ومكنت للتقدم الصناعى والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل .

فاذا رجعت الى العراق رأت عيناك مصداق ذلك . بلدا يثور قرنا من الزمان ، على نفسه حينا وعلى غيره دائما ، دون أن ينضب معينه . بل ان الثورة لتقويه ، وتز كى أنفس الناس فيه فى رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقى للصحراء السورية عند الحدود الفارسية الى جبال حلوان ، من عبدان الى الخليج الفارسى . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيث ترتبط فى نشاط تجارى بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطىء البحر الأحمر . يعمرها مع المسلمين فرس يدينون بالزارادشتيه أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزارادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية الى الاقليم منذ غزوات الاسكندر . وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جند يسابور فى كوزستان استمرت المدرسة ثلمثائة عام رغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الاسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا فى نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لايبو قراط وجالينوس ودسقوريدس واقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم الى السريانية . كما ساعد أهل حران على التواسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحى وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التى وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

فى هــذه البقاع ترعرعت حضــارة يانعــة تكتنفها ديانات متتابعة . الزارادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون . واليهودية فى الشمال تسبق الزارادشتية بنحو تسعة قرون . ثم المسيحية تنزل قبل الاسلام فى شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى . كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا فى تلك القرون العشرين .

وكان العراق محسوبا على فارس وموصولا بها على الوجه الذى بينا بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة اقليمه ، فتجمعت فيه اخلاط من المدنيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب . وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر فى حدة وعرام لم يشهدهما بلد اسلامى ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن الا أن تسكن النفس سكونها الأبدى .

واذا عاشت الجماعة فى انفعال وانبعاث مستمرين برزت — كالفرد — ملكاتها الى الوجود فاستثمرت كل ما فى كيانها من قوة وفتوة .

ومكن لتلك النزعات فى نفوس أهل العراق دين يحبب الجهاد فى سبيل الاعتقاد .

احتفظ العراق دائما بشخصيته حتى ان عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق هى الفارسية الى أن نقله الحجاج فى سنة ٧٨ الى العربية ومع ذلك ظلت الحسبانات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوسا . أما فى خراسان — وكانت تحكم من العراق فقد كان نصر بن سيار أول من نقل الكتابة الى العربية من الفارسية فى أواخر أيام بنى أمية ، ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيهــا بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها الى العربية . كما غدت مركز حركة علمية تجلت فى علم الكلام وفى الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصرى وقــد قيل انه الحكمة التى رزقها جاءته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبى فكانت أم سلمة تناوله ثديها اذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهـد جديد وبقى العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء حتى ان المأمون بعد نحو قرن من خلافة بنى العباس ليباهى به عجائب الكنانة !

جلس فى تواضع العالم بين اخوانه العلماء ــ وكان يسميهم اخوته ــ اذ قدم الى مصر فى أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر . فلو رأى العراق وخصبها ؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته !!.

الباب السابع

في الكوفة

« يخرج الحديث من عنـــدنا شبرا
فيعـــود في العــراق ذراعــا »
ابن شهاب الزهرى

اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالاتها . كانت لا تزال تذكر أيام جعلها أمير المؤمنين على قصبة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود وناهيك بابن أبى طالب وابن مسعود من رجلين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعونى فيذهب الى على . فاذا قال له على : ألا أرسلت الى ؟ قال عمر « انى أحق باتيانك » . ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة « أنت أعلمهم وأفضلهم » . بل كان عمر يتعوذ من معضلة ليس أبو حسن لها « على » .

وكان ابن مسعود أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله . كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفا دونه حتى ذاع المصحف العثمانى .

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا : يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا . قال « يأهل الكوفة . أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام . وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » ولما قدم على الى الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقا ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعا . قال على « ناشدتكم الله . انه الصدق من قلوبكم » . قالوا « نعم » قال « أشهدك اللهم انى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه . فقيه الدنيا عالم فى السنة » .

وترسم خطى ابن مسعود فحول يتصدرهم علقمة النخعى وكان أشبه الناس به . وتلاهم أفذاذ فى طليعتهم ابراهيم النخعى فكان يفتى وينبسط الفتوى ولا يخاف ابداء الرأى ، ثم جاء حماد بن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وراوية ابراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج والأمويين والعلويين قد خلفت فى الفقه آثارا كالجراح ، اذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة على ، وأخذ خصومهم يختلقونها . لنصرة مخالفيه . أبى بكر مرة . وطلحة والزبير مرة . وبنى أمية مرات . كما أخذ أنصار بنى أمية يختلقونها ضد العباسيين . وأنصار بنى العباس يختلقونها ضد العلويين

وضد الأمويين . حتى قيل فى زمن متأخر ان الجاحظ أوتى عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث فى مقتل على . وتدخلت أطراف أخرى فى النزاع . المعتزلة وغيرهم يختلفون ضد الخوارج ويختلق الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعا : كما دس خصوم الاسلام أحاديث كثيرة على النبى . ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسى أو الدينى . بل نجم المال والملق بين الأسباب ، فأصبحت الأحاديث تختلق للخلفاء وللأفراد ولكل شىء . فتسمع أحاديث عن تطيير الحمام عن التمر والعجوة !

ولم يسلم أبو هريرة رضى الله عنه من نقد ابن عمر . روى مسلم أن النبى أمر بقتل الكلاب الا كلب صيد أو كلب ماشية . وأخبروا ابن عمر أن أبا هريرة يزيد . أو كلب زرع .. فقال : « ان أبا هريرة كانت له أرض يزرعها » .

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين الى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض ولنفس الأسباب ! فى المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفى صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع فى زمن لا حق أن يقول انه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله تعالى » ! فلما سئل أبو عصمة نوح ابن مريم الجامع (مات سنة ١٧٣) عن سبب وضعه لأحاديث فضائل سور القرآن قال « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى بن اسحق فوضعتها حسبة » !.

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث فى الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا الى نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة الى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ العجيب للأحاديث . حتى ليروى عن الزهرى أحد مفاجر المدينة أنه قال عن أهل العراق « يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعا » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله « ما قيل من قول حسن فأناقلته » فلينسب الوضاعون اذن كل الأقوال الحسنة الى الرسول ! ذلك ما عبر عنه أحد المستشرقين تعبيرا غريبا بقوله « انهم يضعون أوراقهم على المائدة ولسان حالهم يقول « هذا حق ، ولا مأخذ عليه من ناحية الدين ، بل هو مستحب والنبى كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة فى الأمصار بعد وفاة النبى واشتجرت الآراء بينهم فى الفتاوى تبعا لمبلغ علمهم بالأحاديث والسنن واقبالهم على ابداء الرأى وتأثير البلدان التى استوطنوها فى آرائهم وتقليدهم ومن ثم جاءت خلافات المدينة من ناحية وسائر الأمصار فى النواحى الأخرى وبخاصة فى الكوفة . اذ لم يكن مستطاعا أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة وقد شاهدوها وشاركوا فى تطبيقها جيلا بعد جيل .

وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافا .

ولم تصل السنة الى الأمصار الا على مهل . فلم تظهر فى الحياة العامة فى العراق الا فى سنة ١٦٠ . بل فى سجستان — فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع — كان الزواج يعقد فى أوضاع تخالف السنة حتى طبقها الاصطخرى قاضى « قم » . وفى خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوى هو النضر بن شميل ضيعه قومه فخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعه ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين فلما اجتمعوا قال « يعز على فراقكم . والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى (مكيال فول) ما فارقتكم » فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه !! وسار حتى وصل الى مرو وخراسان حيث جالس المأمون فى اقامته بمرو عليه خلقان فأجيز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثا واحدا فى مجلسه .

ولم تكن السنن فى كتاب ذى مناهج يعرف الناس ونصوصه ومدى تطبيقه ، ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم . بل ان الولاة كانوا فى شغل بالدنيا عن الدين .

كان بنو أمية ملوكا دنيويين لا خلفاء دينيين . اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموى معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها

ذهبا . قال : سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك قال معاوية « ما أرى بهذا بأسا » . قال أبو الدرداء « من يعذرنى من معاوية ، أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه . لا أساكنك أرض » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى المخربة دون أن يخترقوا ظلامها بسهام من النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعا للنظر فى المصالح وتعقل النصوص يزدرى الامعات الطائعة ويقول « أغد عالما أو متعلما ولا تغد امعة فيما بين ذلك » فالاستقلال والاجتهاد فى الفقه ميراث أهل الكوفه يتوارثونه كابرا عن كابر .

ففيم الخضوع للمسلمات اذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ واذا سيقت الفكرة ففيم ينحنى المفكر أمام المفكر ! واذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ واذا سيق الحديث فمن رواة الحديث ؟ واذا انفتح الباب للبحث عن الرواة ، كان لزاما أن يسير الباحث الى النهاية ، فيدرس الرواية مثلما يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذى أتيحت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأموية والعباسية الكبرى ، وتجرى بين يديه التيارات الفكرية الخطيرة فى تاريخ الحضارة الاسلامية وهو عاكف على تلاميذه يسبح سبحاته معهم فى آفاق هذا الكون الحافل ، حيث كل شىء حائل ومتنقل الا هؤلاء ، الثابتين الصادفين عن أسباب الشحناء والسخائم ، يجودون بنشاط جسمى وفكرى عجيب ، تشحذ عزائمهم الأحداث الرائعة المحيطة . فليستجب هو وتلاميذه الى الصوت الذى لا يخفت فى ضجة المذابح وفوضى التخليط ، والذى يهيب بالمؤمنين أن ضعوا حدا للفوضى . وارسوا على الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام . والخطوط التفصيلية للقواعد التى يتطلبها عالم تترامى أطرافه بين الصين والمحيط الأطلسى ، فلم تعد جزيرة العرب الا نواة أو مركزا للدائرة .

واذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة فى عالم السياسة هو الحضارة الفكرية ، فلقد كان جواب المدرسة الجديدة فى عالم التشريع

هو فقــه أبى حنيفة القائم على الاجتهــاد وعلى التحرى الدقيق للروايات . فليناقش كل شيء حتى لا تذيع الآراء الزائفة وتذهب قواعد البنيان التشريعى الذى تأوى اليه الحضارة .

***

افترى كانت للمدينة المنورة فى وسط الجزيرة ، وهى قلب العــالم الاسلامى ، تصبر على هذه الحركة الثورية ؟

ان للمدينة سلطانها الدينى والتاريخى الذى تعنو له الجباه . فهنالك أقام النبى وهنالك يثــوى جسمانه . وهنــالك عاشت الكثرة الغــالبة من الصحابة وأمهات المؤمنين تتصدرهن الراوية النابغة عائشــة بنت أبى بكر . وهنالك الرواة من هؤلاء والرواة عنهــم ، يقتفون آثار زعيمى الحجــاز عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء زكانة ومكانة والماما بعهد الرسول وغزواته وفعاله وكلمــاته » وبأحاديث الخلفاء الراشــدين والصحابة الأقربين . وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش فى أجواء من البــركة والكرامة ، تضفى على كل شيء فيها فيوضا من التجلة والاكبار .

كانت المدينــة كعبة القصاد لمن شــاء أن يتفقه فى الدين والتاريخ والتفسير وما اليها ، وكان عبــد الملك بن مروان أحــد فقهائها الاثنى عشر المعدودين ــ بارحها الى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله فى الدرس قبيصة بن ذؤيب ليجعله على خاتمه .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به الى المدينة ليعود ثانى العمرين اللذين يهز الاسلام بمفارهما أعطافه .

وكان فى عهد أبى حنيفة امامها العظيم مالك بن أنس ، الذى لا يفتى وهو فى المدينة ، حفيد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله ولم يكن من طراز رجل الكوفه يتصايح التلاميذ من حــوله أو يخطئونه وجاها بل كان رجل تقاليد بحق . يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ، ولا يرفع أحــد صوته فى مجلسه . وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور معه المهدى فى سنة ١٦٠ فى بناء البيت الحرام ولمــا هم أبو جعفر أن يبنى

البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد ابراهيم ساوره فقال « أنشدك يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره الا غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس » .فصرفه عن رأيه .

وفى سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطأ من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : ناقش أبا يوسف . فأنف مالك وتنزه عنه وهو العليم بمكانة أبى يوسف من العلم . بل قال الرشيد « ها هنا فتيان من قريش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين .! » .

كان للمدينة من السلطان الروحى ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله « ان الناس لأهل المدينة التى اليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .

وكانت حضارتها بسيطة غير معقدة ولا مشوبة بتخليط ، المشاكل فيها قلائل ، والوقائع تتشابه وتتشاكل . فاذا عرضت مسألة فان لها أشباها فى السوابق وحكما فى النصوص يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يصنعوا خيرا مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبوعون . ومن عقيدة التابع أنه ليس كالمتبوع وأنه لن يكون جيل التابعين ولا أى جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة ففى ذلك الأقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تك مادة الفقه والأحاديث والسنن هى الهواء الذى يتنفس الناس فيه فى كل مكان كالمدينة ، فاذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا فى تسامح المحيط الواسع الذى ينادى بالاجتهاد وبالرأى ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدينة كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج فى كل وقت الى الرأى الجديد ، لا تغنى عنه النصوص القليلة المتداولة . جاؤا يدلون بدلوهم فى الدلاء ، يتحرون ويقرون : لم تكد تهدأ رحلتهم بعد ، ولم تكن لتهدأ الا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادى والفكرى أو يعتورها الكلال والهرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد فى تاريخ الاسلام ، وتحالف الركود الفكرى والركود العسكرى النسبى من ألف عام .

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار واستعصم أبو حنيفة فيها مستمسكا بالرأى وبالتشدد فى قبول الأحاديث ورواتها وعارض فقهاء المدينة وأشياعهم . ثم تطاول الخلاف الفقهى فتحول الى خصام ، وأعلنت حرب المذاهب ، بين كلمات قارصة كقول القائل « وضع أبو حنيفة أشياء فى العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشنعات من الألفاظ سنرى أمثالا منها بعد وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المعقد ...

غرب الوالى الى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرم على الناس أن تلقاه فكانت تأتيه الفتيان على حمير يكترونها على الرغم من أمر الأمير . فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرت الى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوننى قالوا « بيننا وبينه واحدة » قال « ما هى » قالوا : نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات فان لم تقصد الى بيته لما تعرف من اتيان الخراب والسفهاء ، فالقول ما قال » . قال الأمير ان فى هذا لدليلا . « وأتى بالحمير . فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله قال الأمير : ما بعدها شىء جردوه . فلما نظر الى السياط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شىء أشد على من تسخر منا أهل العراق فيقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير !! فضحك الأمير وقال « والله ما أضربك اليوم » وأمر بتخلية سبيله .

وفى أواخر القرن الثانى كان بمصر قاض حنفى هو اسماعيل بن اليسع الكندى يقضى برأى أبى حنيفة فى ابطال الوقف فذهب اليه الليث بن سعد يقول « جئت مخاصما لك فى ابطالك أحباس المسلمين (أوقافهم) » . ثم بعث الى الخليفة يطلب عزله وهو يقول « انك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . على أننا ما علمناه فى الدرهم والدينار الا خيرا » . وعزل الخليفة قاضيا كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب فى الوقف مذهب أبى حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه فى الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية) :

كنا من الدين قبــل اليوم فى سعة حتى ابتلينا بأصـحاب المقـاييس
قاموا من السوق اذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأى عند الفقر والبوس

وكان شرشير المدنى يعيب أبا حنيفة . فقال شاعر الكوفة :

عندى مســائل لا شرشير يعلمهـا عند السؤال ولا أصـحاب شرشير
ولا يصيب فصـوص الحق يعلمها الا حنيفية كوفيــة الـــدور

بلى : كانت هنــاك حنيفية وكوفية فى جــانب ومدنيون فى الجانب الآخر . بل كان ثمة مدينتان تتباريان . وان شئت فقل مدنيتين أو فكرتين : الجديدة المستوفزة الراغبة فى الخلق والاندفاع والقديمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد وتأرجح المفكرون بين الآراء ، فرأينا رجلا كالنضر بن شميل كان يقدح فى أبى حنيفة فى مجلس المأمون بعد أن كا نيمدحه يعود مرة أخرى فيقول لا تروعنا كل ما تقول فى أبى حنيفة فانا نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة » وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوى ــ وهو من أئمة الحنفية ــ أنه كان يذاكر فى بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسين بن حرب المشهور « بحربويه » قاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه : ما هذا قول أبى حنيفة . فقال « أيها القاضى أو كلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » قال « ما ظننتك الا مقلدا » فقـال الطحاوى « وهل يقلد الا عصبى ؟ » قال « أوغبى » وطارت الكلمة فصارت مثلا :

ولما قامت مدرسة الشافعى بعــد نصف قرن من موت أبى حنيفة برز خصم شديد . وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن . واذا بملكين : بل والد وولده هما العادل سيف الدين بن ايوب صــاحب دمشق يقول لابنــه عيسى شرف الدين « يا بنى كيف اتخـذت مذهب أبى حنيفة وأهلك كلهم شـافعية ؟ » فيجيبه ابنه قائلا « أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد ! » وانزلق القوم الى هوة الحقد فتدهور المبتدعون الى حيث تعمى القلوب واذا برجلين من « الخطابية » يستفتى أحدهما الآخر فى أن يشهد على شافعى بالكذب

فيفتيه بقوله : ألست تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون ذلك دمه فاشهد ! وادفع فساده عن المسلمين ..!!

وذات يوم أمر قاضي الحارث بن مسكين باخراج أصحاب أبى حنيفة وأصحاب الشافعى جميعا من المسجد .

وفى الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوما بين يدى السلطان فسألهم فى بساطه من أين أبو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟ قالوا : من المدينة . قال « عالم دار الهجرة يكفينا » وأمر باخراج أصحاب أبى حنيفه وقال « لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان » .

وأخيرا ذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس فى الأرض وأنزل الله على قلوب الحزبين سكينة وأمنا فكانت نار الخلاف بردا وسلاما وغدت وجوه النزاع سباقا لنصرة الدين . وكنوزا نقلبها بين أيدينا لنأخذ منها مثلما نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، قوى خالقه جبارة تأتى بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق (اختلاف أصحاب محمد رحمة (ورووا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال « ما سرنى باختلاف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حمر النعم » وأنه قال « ما سرنى أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » . ولما قال الرشيد لمالك ليكتب « الموطأ » ويفرقه فى الآفاق . ليحمل الناس عليه كقانون مدون . قال يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صح عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا ولا ينجم العداء الفكرى الا بين الحمقى والمتنطعين : ألا هلك المتنطعون .

الباب الثامن

فى الفقه

« انى أرى، لا أكثر . وأومن لا أقل »

« أما مستقبلى فلا أضعه نصب عينى »

فيكتور هيجو

« انى أرى وأومن . لا أكثر ولا أقل » . تلك قواعد تفكير أبى حنيفة فى كلمة جامعة مانعة أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فانها أمور تجىء فى المحل الثانى أو لا تجىء أبدا .

مصدر التشريع الاسلامى هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه نحو مائتى آية من ستة آلاف كانت تنزل على النبى فى المناسبات ، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلى لا جزئى ، وهو مما شرف الله به هذه الأمة ، اذ لم يهمل عقولها ولم يلقنها الجزئيات تفصيلا ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بها ، بالقول أو بالفعل أو بالاجازة ، وهو ما اصطلحوا على تسميته بالسنة وصار بطبيعته مصدرا ثانيا للتشريع .

فى عهد الخلفاء الراشدين ، كانت تقع حوادث لم يعلم للنبى فى نظائرها آراء ، فكانت سياستهم فيها تتحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو يولى شريحا قضاء الكوفة ، اذ قال « أنظر ما تبين لك فى كتاب الله ولا تسأل أحدا ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله وما لم يتبين لك فى السنة، فاجتهد فيه رأيك » ، وفيما كتبه الى ابى موسى الأشعرى من أن « القضاء فريضة محكمة أو سنة .. الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس فى كتاب أو سنة ، أعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمورعند ذلك » .

ولم يكن ثمة اجتهاد بالرأى الا لضرورة ملجئة ، كتب كاتب لعمر : « هذا رأى الله ورأى عمر » فصاح به « بئسما قلت . هذا رأى عمر . فان يك صوابا فمن الله وان يك خطأ فمن عمر ... »

ولما أفتى ابن مسعود فى صداق امرأة مات زوجها قبل أن يدخل بها ولم يفرض لها صداقا ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من نسائها ، وأضاف « فان يك صوابا فمن الله ، وان يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان .. »

الى هذا الحد بلغ تحرج الرجلين اللذين هما زعيما الرأى فى الاسلام ...!

كان الخلفاء الراشدين يستشيرون عمــاء الفكر من الصــحابة اذا استغلت وجــوه الأمور ، وكان عددهم محصــورا ، فكان الاجمــاع ميسورا ، وكان لأبى بكر ما يشبه مجلس الشورى يدعو اليه رجــالا من المهاجرين والأنصار منهم عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت فلما خلفه عمر كانوا فى طليعة مستشاريه .

ولم يكن عمر يتردد فى الرجوع عن أخطائه ، قضى فى عام من الأعوام بحرمان الأخوة الأشقاء مع الأخوة لأم والزوج فى الميراث ، وفى عام آخر أشركهم جميعــا فى ثلث المــال ، وقال : ذاك على ما قضينا وهــذا على ما نقض ... ولم ينقض حجــه « الشىء المحكوم فيه » كما يسمونها فى الفقه الحديث .

ورفعت اليه جارية سوداء متهمة بالزنا فخفقها بالدرة خفقــات وقال : « أى لكاع زنيت .. قالت مرعوش بدرهمين « تريد صاحبها الــذى صنع بها والمهر الذى أعطاها » قال عمر : ما ترون .؟. وكان عنده عثمــان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، قال على : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن : أرى مثل ما أرى أحوط فقال لعثمان : ما ترى ؟ فقال انما حد الله عز وجل على من علم أمر الله . قال : صدقت . ورد على الجماعة ، وأسقط الحد وبين أنهــا تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .

ورفعت اليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلهــا فتردد ... هل يقتــل الكثير بالواحد ؟ فقــال على : أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضوا وهذا عضوا أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمــر الى عامله أن اقتلهما فوالله لو اشترك فيــه أهل صنعاء كلهــم لقتلتهم .

ولما فتح المسلمون الأمصــار طلب الفاتحون أربعة أخمــاس الغنيمة مستندين الى ظاهر النص فى الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى الخمس للمنفعة العامة لكن عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال مندوبو الفاتحين هذا ما أفاء الله علينــا بأسيافنا قال عمر هذا رأيى . قالوا : استشر .. وأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار

عثمان وعلى وطلحة وابن عمر برأى عمر . فدعى عشرة من الأنصار قال فيما قال « قد سمعتم قول هؤلاء القـوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ... أرأيتم هذه الثغور التى لا بد من رجـال يلزمونها ... لا بد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطـاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء ..؟ » وأشـار برأيه المستشارون .

وفى ذلك يقول أبو يوسف « والذى رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقا من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم » ـــ ذلك بأن الخراج انمـا يصرف فى شئون الدولة . فيعـم به النفع كافة المسلمين بطريق غير مباشر .

هذه السياسة العمرية هى التى نشرت الاسـلام فى الأمصار ، فلو استولى الغزاة على الأرض من ذويها لجرد الناس من أموالهم ومتاعهم ، ولقابلت أسماعهم بالصمم صوت الحق ، مروعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التى تبسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العاملين .

وفى عام المجاعة عطل عمر حد السرقة ، ولم يقطع يد الغلمان الذين سرقوا الناقة بل غرم وليهم ثمنها مضاعفا لأنه يجيع غلمانه .

وفى الصدقات أسقط حق المؤلفة قلوبهم لأن الاسلام بلغ عزه فلم يعد بحاجة الى تأليف القلوب بالعطاء .

وفيما لا نص فيـه كم كانت لابن الخطاب اجتهادات .. فهو يعهـد بالخـلافة على غير عهد أبى بكر ، ويوصى بانتخاب الخليفة من ستة عينهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار فى العطاء .

واجتهد عثمان فجدد أذانا ثانيا لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن ، وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الامام ، مع ما هـو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف . وانما خشى عثمان الفتنة لتفريق

الحفاظ واستشهادهم وتباعد أطراف البلاد ، واجتهد على كاجتهاده فى حد قتل الزنادقة فجعله بالحريق فى الأخاديد اذ رأى المصلحة فى الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشديد واجتهد فى قضائه الذى كان مضرب الأمثال .

وفى عهد بنى أمية تفرق الصحابة فى الأمصار فكان بكل مصر من الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتيا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث والمغازى . فلما نجمت الخلافات السياسية التى المنا بها فى الباب السابق نجم معها شر مستطير ، فاذا بالخوارج ولهم فتاوى والشيعة ولهم فتاوى ولسائر الأمة فتاوى — واذا بقبس من النور يترآى فى اجتهادات بعض الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائلين بعدم الاجتهاد التزاما لظاهر النص فى الآية ، وظاهر اللفظ فى الحديث ، خشية الزلل بل ذهب البعض الى القول بأنه لا فتوى لديه اذا لم يكن النص بين يديه .

قالوا : أدرك عبد الرحمن بن أبى ليلى عشرين ومائة صحابى ما منهم رجل يسأل عن شىء الا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثا الا ود أن أخاه كفاه .

ومن الفقهاء من كان يمتنع أن يفتى فى مسائل بذاتها كسفيان بن عيينه لم يك يفتى فى الطلاق ويقول « من يحسن هذا .. ؟ » ولما أعجب به ابن حنبل قال فيه « ما رأيت مثل ابن عيينه فى الفتوى أحسن فتيا منه كان أهون عليه أن يقول لا أدرى » .

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يفتى الا وهو يقول « اللهم سلمنى وسلم منى » بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون : تعلم لا أدرى فانك ان قلت لا أدرى علموك حتى تدرى ، ولو قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى ..!

سأل رجل من الغرب مالك بن أنس فقال : لا أدرى قال السائل تقول : لا أدرى قال : نعم . فأبلغ من وراءك لا أدرى ... !

وذات يوم سئل فقال : لا أدرى . فقال السائل : انها مسألة خفيفة سهلة وانما أريد أن أعلم بها الأمير — وكان السائل ذا قدر — فغضب مالك

وقال (مسألة خفيفة سهلة ! ليس فى العلم شىء خفيف أما سمعت قول الله تعالى : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ..)

وقال مالك يوما : انى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لى فيها رأى الى الآن .

وسئل أربعين سؤالا فقال عن ستة وثلاثين سؤالا منها : لا أدرى .

وكان علامة التابعين الشعبى يقول « لا أدرى نصف العلم » قال : لا أدرى يوما ، فقال له السائل : ألا تستحى من قولك لا أدرى وأنت فقيه العراق ؟ قال : لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله « لا علم لنا الا ما علمتنا » .

كانت أطراف الامبراطورية الاسلامية قد ترامت الى أقصى أقطار العالم المعمور . فلم تك امبراطورية القياصرة ولا امبراطورية الأكاسرة الا بعض أجزائها . لقد غربت الفيالق الاسلامية الى البرزخ الذى يحمل مفاتيح البحر الأبيض لدى المحيط وشرقت كالسهم تخترق آسيا الى أقطار الصين ، وتضاعفت المسائل والمشاكل والأشخاص والأشياء ، فكيف تعنى نصوص بلغت من الندرة ما أحصينا ، وتحرج من الافتاء بلغ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللا أدرى » توحى بتعطيل الفتيا .. !

لم تكن الحضارة التى يجنها ضمير الغيب للاسلام ، والفتوح السياسية والفكرية التى أزهرت فى عهد بنى العباسى ، لتتم أو تزدهر فى أجواء هذا الحرج الفكرى الذى يضطرب فى قيوده الفقهاء .

كانت بالعراق قوى عارمة تستبق الزمان وتستبق حضارة بنى العباس قبل أن تقوم دولة بنى العباس ، فلم يك للأمة غنى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل أصولا تشريعية صالحة لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسلمون فيها بالفقه كما يرتبطون بالدين نفسه على أساس من فهمه والايمان به ، والقدرة التى هى شرط التكليف .

فهل استجابت قوى الأمة الى ماجاش فى صدرها من خلجات وحاجات ؟ هل فسحت المجال الحيوى لمواهب بنيها لتربى وتنتشر وتطير

فى كل مكان وزمان على أحرف الهجاء ، كما يطير الصوت على ألف جناح وجناح من موجات الهواء ؟ وبعبارة أخرى هل قدمت هـذه الأمة الدليل على قوتها وحيويتها وأصالة حضارتها ؟ فالدولة الحية كالجسم الحى اذا حزبتهـا الأمور نبض قلبهـا أقوى نبضاته وتجمعت قواها تجمع الأسـد للوثوب فدفعت الى الوجود من يملأون الفراغ كله ، ويحققون الرجـاء كله ، فيدفعونها الى الامام دائما وباستمرار .

بحسبنا أن نرجع البصر كرة واحدة لنرى مقدار ما استجابت المدنية الاسلامية الى ذلك النداء الصامت عندما تجاوبت فى جنباتها أصداؤه ، ومدى رسوخ هذه الحنيفية السمحة ونفوذها الى الأعماق ونرى الى جوار ذلك فضـل السبق الذى تفرد بقصبة الامام المجلى فى حلبة الفقه والعلم والذى نادته الحضارة الاسلامية فى كل عصورها بأنه « الامام الأعظم » .

ففى سنة ٨٠ ولد أبو حنيفة ، وفى سنة ١٢٠ كان يلقى على النـاس أصول مدرسة الكوفة ليدونها أبو يوسف وغيره من التلاميذ على ما أسلفنا من بيان ويسجلها من بعدهم رهط كبير من العلماء تلألأوا فى سماء الدولة العباسية التى لم تبدأ حيـاتها الا فى سنة ١٣٢ وازدهرت فيها الحضـارة العلمية فى أيام الرشيد فى أواخر القرن ، وفى أيام المأمون وما تلاهـا فى القرن الثالث للهجرة .

أما الأوزاعى امام الشام فولد سنة ٨٨ ، ومالك بن أنس امام المدينة ولد فى سنة ٩٣ ، وزفر ابن الهذيل ولد فى سنة ١١٠ ، وأبو يوسف ولد فى سنة ١١٣ ، ومحمد ولد سنة ١٣٢ .

وفى سنة ١٥٠ و ٧٦٧ م هوى نجم وبزغ نجم فمات أبو حنيفة وولد الشافعى ، وفى سنة ١٦٤ ولد رابع الأئمة الأربعه ابن حنبل ، وفى سنة ١٧٩ (٧٩٥ م) مات مالك ، وفى سنة ٢٠٢ ولد داود الظاهرى امام أهل الظاهر ، وفى سنة ٢٠٤ (٨٢٠) مات الشافعى وفى سنة ٢٢٤ ولد الطبرى وفى سنة ٢٤١ (٨٥٥ م) مات ابن حنبل .

ظهر هؤلاء الأئمه جميعا بعد أبى حنيفه بسنين وعشرات السنين ملبين لنداء الأمة ، مترسمين خطى الأستاذ الأول الذى استجابت على يديه العناية الالهية لهتاف الاسلام .

***

سئل أبو حنيفه عن خطته فى الفقه فأجاب « انى آخذ بكتاب الله ان وجدته ، فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التى فشت فى أيدى الثقات ، فاذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت : وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ، فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب ــ وعد عدة من مجتهدى التابعين وتابعيهم ــ فلى أن أجتهد كما اجتهدوا » .

والصحابة هم الذين كانت لهم صحبة بالرسول طالت أو قصرت على ما رأى المحدثون أو الذين رأوه على ما يرى البخارى . أما التابعى فهو من رأى صحابيا ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لى أن أجتهد كما اجتهدوا ... !

تلك هى المسألة الأولى لأبى حنيفة .

واذا كان أبو حنيفة ينحنى أمام رأى الرسول ورأى الصحابة فيقول : ان مقام أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا جميع عمره وان طال » فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقته كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقته ، ورأى أن تحجب نساء النبى ونزل القرآن بموافقته . ورأى أن عبد الله بن أبى منافق ونزل القرآن بموافقته وموافقات عمر للقرآن والوحى ، تبلغ بضعة عشر موضعا .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لآرائهم خير المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود « من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا ... »

لكن أبا حنيفة اذ ينحنى أمام أصحاب الرسول لا ينحنى لسواهم من التابعين ولا تابعى التابعين فأولئك لم يمسسهم من بركات الصحبة مثل ما قدر للأولين .

ولما سأل لاس كازاس نابليون فى سنت هيلين بعد ألف عام من وفاة أبى حنيفة : لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير منذ كنت فى برلين ؟ أجاب « لقد كان معى سيفى . » .

كان فقــه الكوفة مطبوعا بطابع ابن مسعود وكان كعمر يجتهد فيرى الرأى حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه ابراهيم النخعى « انه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتمعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه ألطف » .

سئل أبو حنيفة : اذا قلت قولا وكتــاب الله يخالف قولك ؟ قال أترك قولى لكتاب الله . قيل فاذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال « أترك قولى بخبر رسول الله » . قيل فاذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ قال : « أترك قــولى بقول الصــحابى » . قيل : فاذا كان قول التــابعى يخالف قولك :

قال « اذا كان التابعى رجلا فأنا رجل ... »

أجل : هو رجل والرجال قليل .

انه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كمــا كان بعض زعمــاء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الاسلام العــامة كقوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك » أو قوله « أدرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » أو قوله اذا امرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعــالى « لا اكراه فى

الدين » . أو قوله سبحانه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وغير هذه القواعد الكليات .

تلك المسألة الأساسية فى فكر أبى حنيفة كانت نقطة التحول فى الاتجاه العلمى للمجتهدين .

فليقدح أبو حنيفة زناد الفكر الانسانى وليسبر أغواره . وليقلب النصوص بين يديه فى جسارة لا تهاب الافتاء ، فاذا أصاب فهو مأجور ومأجور ، واذا لم يصب فالعصمة لله جميعا .

قال صاحب الشريعة : اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر . وقاله لصاحبيه الصديق والفاروق (قولا فانى فيما لم يوح الى مثلكما) ، ولما أخذ رأى صاحبه يوم وقعة بدر فى المكان الذى يرابط فيه أخذ يقول له (.. يا رسول الله ان هذا المكان الذى أنت فيه ليس بمنزل ، انطلق بنا الى أدنى ماء القوم فانى عالم بها وبقلبها ، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح ثم نبنى عليه حوضا فنشرب ونقاتل .. فنهض ففعل ذلك .

ان لأبى حنيفة برسول الله أسوة حسنة ، فالمجتهد دائما مثاب ، لأن الاجتهاد فى ذاته صواب أو كما قال أبو حنيفة « المجتهدان مصيبان والحق فى واحد » وكما قال الشافعى « المجتهدان مصيب ومخطىء معفو عنه » واذا تحاض المسلمون على الجهاد فى سبيل الدين ، فليتحاض العلماء على الاجتهاد فى سبيل العلم .

وليقع أجر أبى حنيفة على الله مصيبا ومخطئا ، وليشتق للناس هذه الطرائق المعبدة التى يسيرون فيها بأمان واطمئنان ، يحسبونها خلقت موطأة الأكناف كما هى الآن ، وكانت من قبل أضيق من سم الخياط وأكثر ترويعا من المسبعة .

ان الكشوف العظمى التى يتخذ منها العالمأبجديات حضارته اليوم كانت فى ظلمات الجهل الانسانى أعداما ، وكان العالم حريا أن يظل سادرا فى جهالته بها أزمانا لو لم تكشف له .

فليس بهين عمل أبى حنيفة فى اعمال الرأى اذا كنا الآن نأتى بالرأى فى كل شأن ، فان هذه الحرية الفكرية لم تتقرر الا بعد أن خط لناثلة من العباقرة مسالكنا فى الشعاب واقتفت آثارهم نخبة الطلائع ، وجاءت فى أعقابهم عصور الاحياء فى الغرب وثورات دينية وفكرية لولاها لما بلغ الناس ما بلغوه من حرية التفكير والتعبير .

أما أبو حنيفة ففض الحجب واستطاع من ألف ومائتى عام أن يقول : انى أرى .

***

وفى السنن والاحتجاج بها كان لأبى حنيفة شئون أخرى .

السنة هى الطريقة .

وهى فى الفقه ما جاء عن رسول الله من أقوال أو أفعال أو اقرار لأقوال أو أفعال صدرت من سواه . وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل الينا ، أو اجتهادا مجتمعا عليه منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » .

والاحتجاج بالسنة يكون بالأحاديث التى تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواة الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا . وكانت طريق الوثوق بالخبر فى أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فقهاؤهم بما يوافقه أو يجرى عليه عملهم لا يختلفون فيه ، لأنه عن مشاهدة جيل لمن قبله حتى عهد الرسول فهو من باب السنة العملية ، أما أفعال النبى الشخصية كالحرب أو معاملته لزوجاته ، فتلك أمور خاصة به وبالدنيا وهو يقول « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

لكن حالة الأمة والخلافات التى نشبت حرضت على اختراع الأحاديث أسلحة للحرب الداخلية ، وكان كل حزب يزكى رأيه بالحديث الصحيح

والحديث المخترع ، وكثرت أسباب الاختلاق كما بينا من قبـل . وأصبح الحديث الصحيح فى الحديث الكذب ــ كمـا قال الدراقطنى ــ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وفشت فى الكوفة القالات لكثرة الشقاق ، وقلة الرواة ، ولأن الثورات لم تكد يفرخ روعها بعد ، حتى كان مالك يسميها دار الضرب « ضرب العملة » ، اذ تسك الأحاديث كما تسك النقود .

وكان الثقاة من الرواة يختلفون فى النصوص عن الحديث الواحـد منهم من يختار كلمة تؤدى معنى بدلا من أخرى تخيرها غيره ، كحديث خطبة الوداع ولا خلاف فيه ، جاء فى نصه الخلاف بين الرواة ولم تكن الأحاديث كلها نقـلا عن النبى بل كان يشترك فى بعضها الصحابة وكانت لغة الناقلين متغايرة ونطقهم مختلفا فنتج من ذلك اختلاف كبير بعضه بحسن نية الناقلين باهمال ، وكثير منه خال من الاخلاص ولم يك أحد ، حتى الصديق والفاروق يستطيع الاحاطة بجميع الأحاديث ، ثم ان من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه ، ثم آفة النسيان . فالفاروق نفسه نسى فذكره عمار فلم يتذكر ... !

سئل عن الرجل يجنب فى السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلى حتى يجد الماء فقال له عمار : يا أمير المؤمنين أما تذكر اذ كنت أنا وأنت فى الابل فأجنبنا . أما أنا فتمرغت كما تمرغ الدابة ، وأما أنت فلم تصل فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : انما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بها وجهه وكفيه فقال عمر : اتق الله يا عمار . فقال عمار : ان شئت لم أحدث به . قال عمر : بل نوليك من ذلك ما توليت .

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث اذا رواه واحد الا اذا استشهد على روايته شاهدين . وكان على يستحلف الراوى ، أما ابن مسعود فكان اذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقلته الرعدة وقال هكذا .. أو نحوذا .. أو قريب من ذا .. وكان ابراهيم النخعى لا يقول قال النبى وانما يقول قال ابن مسعود أو قال علقمة .. وكان الشعبى يقول « كره الأولون الصالحون الاكثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت الا بما أجمع عليه أهل الحديث » .

واذا كان ذلك شأن الخلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يخضع له أبو حنيفة بعـــد أن بلغ السيل الزبى ، وهـــو الذى لا حجة عنده للثابت الصحيح .

أفيمنعنى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل فيها قواعده ! أفيقبل قول أهل المدينة ان الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم كما صنع مالك مع أبى يوسف وهو قاضى القضاة !.

سأل أبو يوسف مالكا عن الأذان ، فسأله بدوره عن الأذان لديهم فذكر مذهبهم فيه فقال مالك : من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سألوه أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر فقال مالك : ما أدرى ما أذان يوم . وما صلاة يوم . هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده ! يشير الى أن ما جرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

ان أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالسنة ، ويجب لذلك عنده أن تكون متواترة والا فمشهورة ، واذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه على وجه يتفق وعلل الشريعة وأحكامها .

وسبيل التواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ . وأكثر السنة المتواترة فى الأفعال كالشعائر والعبادات ، تتناقلها الأجيـــال . وسبب ذلك أن أعمال الرسول هى وسيلة تطبيق الأحكام وردت فى القرآن يحاكيها الناس ، فيتعلمونها ويتوارثونها كأسلوب الصـــلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث قولى متواتر .

فان لم يكن الحديث متواترا فيجب أن يكون الراوى عدلا موثوقا به ينقل عن عدل موثوق به ، وأن تكون الأمـــة والفقهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن يخالفهم أحد فيه لأن هذا يدل على اقرارهم لهم ، اذ لو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التى آلت الينا

عن عمرو بن مسعود ، روتها عنهم جماعة بعد جماعة ومنها حديث .. (لا ضرر ولا ضرار) وحديث (انما الأعمال بالنيات) .

أما ما يخالف القرآن من السنة فليس منها !

وأما أحاديث الآحاد التى يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر عن واحد عن الرسول — وما أكثرها — فلا يطمئن اليها أبو حنيفة وان كان الكثير منها فى نواح أخرى من المسلمات .

وهو يعرض الحديث على عمومات الكتاب وظواهره ، والسنة ، فان خالفت ظاهر القرآن استبعدها وأخذ بالقرآن ، وان خالفت السنة المشهورة استبعدها ، لأن القوى لا ينسخه الضعيف وان طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها اذا خالفت العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، واذا جاءت أخبار الآحاد مخالفة لقاعدة من قواعد الشرع فلا يعمل بها ، ولا يقبلها فى الحدود لأنها تدرأ بالشبهات ، ولا فى الكفارات ، ولا يقبل حديثا عمل راويه بعد روايته بخلافه ، ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو اذا عارضه آخر مثله ، وتأيد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالعراقين قلائل أمرهم عمر لا يحدثوا الناس . واليك مثلا : كان حذيفة بالمدائن وكان واليها سلمان وكان حذيفة يذكر أشياء قالها الرسول لأناس من أصحابه فى الغضب ، فيطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفة أعلم بما يقول وعاتب حذيفة سلمان على هذا التعبير فتهدده سلمان بقوله : فوالله لتنتهين أو لأكتبن لعمر !

لقد كانوا يهابون الدره فى يده ! ويعلمون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوما أكنت تحدث الناس فى زمان عمر هكذا ؟ قال : لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته .

فلا عجب اذا كانت ظروف العراق توجب الاحتياط فى تلقى الأحاديث . ولا عجب اذن فى أن يقول أبو حنيفة « عندى صناديق من الحديث ماأخرجت

منها الا اليسير الذى ينتفع به .. » ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حديث . ألفين منها عن حماد ، وألفين عن غيره ، وأنه كان اذا هبط الكوفة محدث بعث أصحابه على أثره ينظرون هل عنده شىء من الحديث . ولا عجب مع هذا كله اذا انحصر المتفق عليه عند الحنفية فى قليل جدا من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يتخير أحاديثه فى الموطأ ينقصها عاما بعد عام ، وكان ينهى ابن وهب تلميذه عن الاكثار من السماع الذى لا يحدث به ، بل انه يندم على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجد فى تركته حديث لم يحدث به ..

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبى حنيفة حتى ليقال ان البخارى اختار أحاديثه سبعة الآلاف — ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة — من ستمائة ألف حديث كانت متداولة عندما وضع صحيح البخارى . ! ! !

بل قال حنبل بن اسحق عن عمه الامام أحمد بن حنبل « جمعنا عمى : وقرأ علينا المسند .. وقال لنا ان هذا الكتاب جمعته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفا .. » .

بل ويقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل .. « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب : ذاكرته . فأخذت عليه الأبواب ! ! !

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفا من الأحاديث !

فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة ينقصها من أطرافها ، يغربلها وينخلها ، حتى ليروى بعض المؤرخين أن ما صح عنده سبعة أحاديث متواترة .. ! أو كما قال ابن خلدون : « ان أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا أو نحوها » . ! ! !

والصحيح أن أبا حنيفة انفرد بمائتى حديث وخمسة عشر حديثا غير ما اشترك فى اخراجه مع سائر الأئمة . وله مسند روى فيه فى الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ولما جمع أبو المؤيد الخوارزمى مسندا له وقع فى ٨٠٠ صفحة .

من أجـل ذلك — وتلقاء ما لم يثبت عنده من العـدد الضخم من الأحاديث — كانت قواعد أبى حنيفة قنبلة لا يحس أثرها القارىء بقدر ما أحسه الشهود ، أى المعاصرون . وقدر ما نزل بالمصابين وهم الرواة . لقد زلزلت دولة المحدثين زلزالها أمام تلك الغزاة الفكرية ، المقبلة من المشرق مع الدولة المقبلة من العراق ، حتى جاء الشافعى يرد اليها مكانتها بجـداله العبقرى فى بغداد والحجاز وفى الفسطاط وهيأ لذلك الصاحبان نفسـهما ، بعد اذ مات الشيخ فى بغداد وتبعهما الشافعى بأسلوبه القوى فاعتزت به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

حمى أبو حنيفة الاسلام من أن يقصر الفقه دون مطالبه ، فأدخل فيه الاجتهاد ، وحمى الفقه نفسه من أن يبيد ، بالمبادرة الى تدوينه ، فنقل الى الأجيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .

وقف أبو بكر عندما ارتد العرب وقفته المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم من المسلمين الأولين وسقط فى هذا القتال كثيرون من الحفاظ ، فراح عمر يقول له فى اثر واقعة اليمامة وان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس . وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه وانى لأرى أن تجمع القرآن » .

ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى عمر ، فجمعت الصحف ثم صارت « المصحف الامام » فى خلافة عثمان بن عفان . أبقيت منها نسخة واحدة لديه ، ووزعت خمسة فى الأقطار فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام .

أما السنة فلم تجمع ، وان كان الرسول عليه الصـلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه .. فنهتنى قريش فقالوا : انك تكتب كل شىء تسمعه من رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الغضب والرضا . فأمسكت عن

الكتاب فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أكتب فوالذى نفسى بيـده ما خرج منى الا حق » . وصحيفة عبـد الله هذه هى المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال « انكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيهـا والناس بعدكم أشد اختلافا . فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » .

حتى اذا ولى عمر هم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يوما فقال للناس انى كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا ألبس كتاب الله بشىء .

وأبى ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأى فى جمع الكتاب العزيز .

كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول الا مقلين على ما أسلفنا من بيان ، ولما بعث عمر بعثه الأول الى الكوفة قال للمبعوثين (ان أهل العراق لهم دوى بالقرآن كـدوى النحل فلا تصـدوهم بـرواية الأحاديث وأنا شريككم) .

وقديما كان من شرائع أسبرطة ألا تدون القوانين الا فى القلوب وأن يتمرس بها فى حياتهم وتدرب الناشئة عليها فى أيامها الأولى ، لتكون الأفئدة وعاءها لا النصوص . فمنع « ليكرج » تدوين الشرائع وكانت فلسـفة التدوين عنده تتحصل فيما عبر به من فلسفته فى القيود والحدود حيث قال « ليست بغير سور هذه المدينة التى لا سور لها اذا كانت تحميها قلوب الشجعان » وما تزال أمم كانجلترا دستورها غير مكتوب ، تقوم على حياطته مهج ليس أرخص عندها من أن تسيل فى سبيله . وكانت حضارة الصدر الأول من الاسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم تردد الناس فى التدوين وقلة حاجتهم اليه ، وقال القائل ان اثبات السنن بعـد جمعها ليس أصلح منه قبل ذلك ..

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب الزهرى وأبى بكر محمد بن عمرو .

كانت كل الأشياء تلح على الأمة للتدوين سواء فى الحديث أو الفقه أو التاريخ أو الشعر أو العلوم ، وكانت أشد حاجة الأمة الحاحا حاجة فقهها الى التسجيل حتى لا ينهار بين أيدى الشيع المتخاذلة ، وحتى يتمكن الكافة منها بتلك الوسيلة التى لا رسول مثلها بين الأجيال نعنى بها الكتابة والغذاء الفكرى لا يقدم للعقل البشرى — بحق — الا فى وعاء من الورق : فى كتاب .

لم تكن الوراقة تكاد تعرف بعد ، وكان الورق بعيد المنال : حتى أن الدولة فى عهد المنصور (سنة ١٣٦ — ١٥٨) كانت تكنز القراطيس مخافة نفادها ، وفى ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بخزائنه فأمر ببيعها وان لم يعط عن كل طومار الا دانقا (١/٦ درهم) وكان الطومار فى ذلك الوقت بدرهم ، وفى الغداة عدل عن رأيه واستبقى القراطيس مخافة أن يقع بمصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ، ولهذه العلة كان الفرس يكتبون فى الجلود والرق تخلصا من الحاجة الى ورق لا يصنعونه فى بلادهم .

وكان أبو جعفـر يأمر كتابه بجمـع الخط حتى لا يسرف كاتبه فى القرطاس .

وأول من كتب فى الطوامير الخليفة الوليد بن عبد الملك . وفى خاتمة القرن الأول كتب عمر بن عبد العزيز الى عامل بعث اليه يطلب قراطيس « دقق القلم وأقلل كلامك تكتف بما عندك من القراطيس » .

وكان ما يكتب فى الدواوين يثبت فى صحف ، فلما جاء خالد بن برمك وزير السفاح (١٣٢ — ١٣٦) أمر باثباته فى دفاتر .

لكن الكتابة كانت شغل مدرسة أبى حنيفة فى عهـد المنصور ، وقبل ختام ذلك العهد بسنين وعشرات السنين ، كانت المسائل تدون فى الحلقة على ما أسلفنا منذ رأسها ، وكان هو يدون لنفسه المسائل وهو تلميذ فى حلقة حماد ، كما كان الأئمة والمجتهدون ينظرون فى كتبه فى حياته ، ولم

يتأكد لنا التدوين الفقهى عند غيره من فقهاء الجمهور الاسلامى الا بعد أن كان أبو حنيفة قد أبلغ رسالته فى الكوفة وفى مكة والمدينة وفى كل مكان ، وسجلها تلاميذه فى كتبهم ، ثم تحرك دولاب العلم .

واستخدمت أداة التدوين ، فساعد التدوين على الوراقة ، وساعدت الوراقة على التدوين وأخذنا نسمع أن العلماء (أصحاب المحابر) — وبدأ التاريخ بتسجيل فضل أبى حنيفة اذا صح ما قيل فربط اسمه بالقلم والدواة .

فمن أين هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبى حنيفة » ؟

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين الا حمادا ، وان التاريخ ليذكر نحو الثلاثين من العلماء كنوا بهذه الكنية بعده كالايقانى والدينون صاحب كتاب البنات ، والبخارى ، والفارسى الملجمى (من فقهاء الشافعية) والمغربى (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم ان حنيفه احدى القبائل التى عرض الرسول نفسه عليها ، فأبو حنيفة ليست من جراء أبوة لفتـــاة ، ولذلك قال البعض ان سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤنث حنيف ، والحنيف هو المائل الى الدين قال تعالى : « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » وقال جل شأنه (فأقم وجهك للدين حنيفا) ولذلك تسمى الشريعة بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاة والسلام (بعث بالحنيفية السمحة) .

ولكن المرء يتساءل لماذا لم تكن أبا حنيف بدلا من أبى حنيفة واذا أنث الحنيف فى شأن من كنوا بكنيته تشبها به فلماذا أنثت كنيته هو ؟

ولهذا ننتقل الى قول آخر قاله (الكافيجى) ، وأورده ابن حجر وردده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق ...

وسواء أصح القول أم لم يصح فانه يصل بيننا وبين عقيدة ثبتت فى التاريخ عن ارتباطه بالدواة أو ارتباط اسمه بها وارتبـــاط مذهبه بالتدوين والتحرير .

وهذه هى اليد الكبرى لأبى حنيفة على الاســلام فاذا كان لأبى بكر وعمر الفضل فى تدوين الكتاب العزيز ، أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل

التفكير فى تدوين السنن دون أن يتم له ما أراد ، فا نلأبى حنيفة فضل تدوين الفقه الاسلامى ، وتدريسه بابا بابا ، وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعة تدريسها ، فدونت فى حياته وتضخمت بعد وفاته ، فخلقت البحوث الضافية التى شغلت بها المدرسة ثلاثين عاما أو تزيد ، وتلقاها الصاحبان وتلاميذها وخلفاؤهم ، ثم تسلمها الشافعى وتلاميذه ، ومالك وتلاميذه وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبنوا لنا ذلك الصرح الممرد الذى يقف الرائى ازاءه مشدوها تروعه ضخامته قدر ما تبهره متانته .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أو جمعت بعض السنن ، ان ذلك كان خاصا بالتفسير والسنة ، وكان فيما يتعلق بالأحاديث شخصيا لا يقصد به نفع الجمهور كصحيفة ابن عمرو المسماة بالصادقة أو صحف الزهرى .

ولئن قال بعض الفقهاء بأن تدوين السنن كان فى سنة بضع وأربعين ومائة ، أو حددها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ! انها جميعا تواريخ لاحقة لرياسة أبى حنيفة لحلقة الكوفة ببضعة وعشرين عاما .

ولقد يكون حقا ما قيل من أن على بن أبى طالب كان يجمع فى قرابة سيفه بعض أحكام الفقه ، وأن بعض الشيعة دونت لهم كتب لكن التدوين والتأليف للجمهور الاسلامى على نطاق شامل . لم يبدأ الا على يد أبى حنيفة .

قيل ان مالكا جمع الموطأ فى ذلك العصر . لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوى عرضا وشرحا ، وفروضا وحلولا وأصولا وتفاريع وأسئلة واجابات . ثم ان مالكا لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة فى رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عاما من النجابة والصدارة فى حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين ، وكان أبو حنيفة فى حلقة حماد تلازمه كنيته التى تحدثنا عنها .

قالوا انه لما استقامت الأمور لأبى جعفر خرج حاجا الى مكة سنة ١٤٨ فكان فيمن دخل عليه مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله انى رأيت أنى

أجالسك فى هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام وأحمل الناس على علمك • وأعهد الى أهـل الأمصار يوفدون اليك وفدهم . لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق . فقال مالك « يا أمير المؤمنين ان أهل العـراق قد قالوا قولا تعدوا فيه طورهم ... فان رأى أمير المؤمنين اقرارهم على حالهم فليفعل ... فأعفنى ... فأعفاه » .

وذكروا أن مالكا حج فى سنة لاحقة فقال له أبو جعفر : يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتبا ... واقصد الى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لتحمل الناس ان شـاء الله على علمك وكتبك ... فقال مالك : أصلح الله الأمير : ان أهل العراق لا يرضون علمنـا ولا يرون فى علمهم رأينا فقال أبو جعفر : يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف .. فتعجل بذلك وضعها فسيأتيك ابنى المهدى العام القابل ان شاء الله الى المدينة يسمعها منك » وذكروا أن مالكا لما أخذ فى تدوين كتبه قدم عليه المهدى فأتاه بكتب الموطأ فأمر المهدى بانتساخها وأمر له بأربعة آلاف دينار ... ولابنه بألف .

لم يكن مالك يحب الكتابة فقيـل له : ماذا نصنع ؟ قال : تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون الى الكتابة !

وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهى ظاهرة نعرف أسبابها من جواب جابر بن يزيد اذ قيل له انهم يكتبون ما يسمعونه منك فقـال : « انا الله وانا اليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا !. »

والذى روى عن أبى جعفر فى تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك ، وسواء أصح تكليف هذا له أو ذلك ، فانما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أى بعد أن أستأثر ثرى الكوفة بعظام أبى حنيفة ، أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذى شرحنا .

انمـا تنتسب النهضة الرائعـة فى التدوين الى أبى حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم ، الـذين أقبلوا على التـدوين مدفوعين بغريزة الأمة المشغوفة بالتأليف والتصنيف ، بالاملاء أو بالكتابة ، فى مجالس الافتاء أو فى مقاعد

الدرس حتى لتجد فى خاتمة القرن الرابع أو فاتحة القرن الخامس مجلسا للطيب الصعلوكى يضع فيه الشيخ فى وقت املائه أكثر من خمسمائة محبرة ... !

لم يضع الصحابة والتابعون فى علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا كتبا مرتبة ، وانما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويجعلون قلوبهم صناديق علمهم ، وجاء أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، فدونه ورتبه مبتدئا بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات ، ثم ختم بكتب المواريث لأنها آخر أحوال الناس وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال : وضع أبو حنيفة ستين ألف مسألة فى الاسلام. وقيل ثلاثة وثمانين ألفا منها ثمانية وثلاثون ألف أصل فى العبادات وخمسة وأربعون ألف أصل فى المعاملات وقيل بل ... خمسمائة الف ..

ورووا أن مالكا كتب الى خالد بن مخلد القطرانى يسأله أن يحمل اليه كتب ابى حنيفة ففعل .

وصنع ذلك الأوزاعى مع عبد الله بن المبارك بصدد كتب أبى حنيفة كما سنرى بعد . وصنعه الشافعى عن طريق محمد بن الحسين .

وصنعه سفيان الثورى فرأى الرائى تحت رأسه كتابا استأذنه فى قراءته فاذا هو كتاب أبى حنيفة فى الرهن فسأله : أتنظر فى كتبه ؟ قال : وددت أنها كلها مجتمعة عندى .

صنع هؤلاء الأئمة ذلك وصنعه الفقهاء والمجتهدون والمقلدون والناس جميعا .

الباب التاسع

إمام أهل الرأى

« علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه »

« ابو حنيفة »

كان أبو حنيفة قياسا « يقيس المسألة على أخرى ليردها الى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد ويدور حول الاتباع » كما قال .

أو كما قال فى وصيته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء بمرو « ان أبواب القضاء لا يدركها الا العالم النحرير ... فاذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل الى الكتاب والسنة والاجماع ، فان وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به ، فان لم تجده ظاهرا فرده الى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان الى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذى سال منه فقه أبى حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصيل والشمول والانتشار ، وأضحى فى متناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعبادات .

لم يكن من ذلك بد ، فالناس فى بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون الى معالم تعين حدوده وأدوات تتيح لراكبيه أن يسبحوا فيه ، ولا غنى فى تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذى له نهاية لا يضبط شيئا بلا نهاية .

فاما أن يترك الناس مع أهوائهم فى المتاهات ، واما أن يقفوا تلقاءها جامدين ، فلا يكون بد من التوقف المؤدى الى تعطيل التكاليف أو الى مالا يطاق ، واما أن يؤذن الناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفى بلد متحضر كالعراق ، حيث تجمعت قوى الاسلام لتنطق فى مضمار الحضارة ، كانت تقع أمور ذات بال تدفع الفقيه الى الابتكار فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضى والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التى تحدث للناس .

والقياس فى كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وأول أبواب الاستنباط وأعلاها هو القياس .

وفى السنة اجتهادات وقياسات كثيرة : قصد الى الرسول رجل ينكر ولدا له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام « هل لك ابل ؟ » قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيهــا من أورق ؟ قال : نعم . قال : فمن أين ؟؟ قال الرجل : لعله نزعة عرق . قال : وهذا لعله نزعة عرق . ».

قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرنا ويقوله العلم الآن .

واجتهد النبى اجتهادات صححها القرآن وفى بعض ذلك قوله سبحانه (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك) ولمـــا أذن للمنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

بل ان من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم كيوم نزوله فى بدر دون الماء فقيل له بوحى أم برأى .

أما اجتهادات الصحابة ، فكانت كالعــلامات التى تشير الى ما تحت الثرى من كنوز ، أمر النبى صحبه يوم الأحزاب بأن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلاها فى الطريق ، قائلين ان النبى أراد السرعة ، وأبى آخرون الا أن يصلوها فى بنى قريظة فصلوا هنالك ليلا ـــ وهؤلاء هم سلف أهل الظاهر ـــ الذين يتمسكون بظاهر النصوص أما الأولون فهم الآباء الفكريون لأصحاب القياس والاجتهاد .

ولما كان على بن أبى طالب باليمن اختصم اليه ثلاثة نفر فى غلام وقعوا على أمه فى طهر واحد فقال لاثنين منهم : طيبا بالولد لهذا . قالا : لا . قال لاثنين فيهما الثالث : طيبا بالولد لهذا قالا : لا . قال : أنتم شركاء متشاكسون انى مقرع بينكم . فقرع بينهم وجعل الولد للقارع وجعل عليه للرجلين ثلثى الدية .

فبلغ ذلك الحكم النبى فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء على .

واجتهد صحابيان خرجا فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهمـــا ماء فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبى وقال للذى لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين .

ولما قتل خالد بن الوليد قوما قالوا : صبأنا . قال النبى : (اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد) ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاجتهاده .

لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عليا ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتحرجون دون القياس أو الاجتهاد ، وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجا ... كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى ليسمى سعيدبن المسيب الجرىء،فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشىء فيدفعه الناس من مجلس الى مجلس حتى يدفع الى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال « انما يفتى الناس أحد ثلاثة : رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بدا أو أحمق متكلف » فقال ابن سيرين . فأنا لست أحد هذين فأرجو أن لا أكون أحمق متكلفا .

حتى اذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشتى أسمائها (القياس . أو الاستنتاج • أو الاجتهاد . أو الرأى) وقلبها فى كفه كعصا موسى ، فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غراره وجرى المجتهدون فى غباره ، اللهم الا أشياع داود الأصفهانى (الظاهرى) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وان فى عمومات النصوص كفاية للأمة ، وقد درس مذهبهم .

واذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الاسلامى تربو وتنمو حتى ترفع الفقه الاسلامى الى مستواه الرفيع العالى بين مستويات الشرائع المقارنة تطلع اليه فى قممه الشوامخ. ذلك الفضل من الله أتاه أبا حنيفة ، وهو الذى جعل الشافعى يهتف بذكراه قائلا (من أراد أن يعرف الفقه فيلزم أبا حنيفة وأصحابه فان الناس كلهم عيال عليه فى الفقه) .

وانتقلت هذه العصا السحرية الى اللغة والنحو كما يذيع الخير ، ويشيع النور ، وتنتقل الصحة ــ والصحة تعدى كما يعدى المرض ــ فاذا بالقياس فى البصرة والكوفة يهب اللغة العربية طرازات كأنها الاختراعات .. فلو كنت من أهل البوادى فى ذلك الزمان ممن يعولون فى اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانو يعولون فى الفقه على النصوص وحدها ، ثم جئت الى

مصر أو الى الشام بله العراق ـــ بعد أن أعمل علمـــاء الكوفة والبصرة فى اللغة آلة القياس ـــ لظننت أن العربية التى تسمعها ليست هى العربية التى تعهدها .

كان أبو حنيفة منطقيا ، والمنطق جوهرة القياس ، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .

واذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلمـــاذا لا يتعرف المجتهد باستقراء الأحكام الشرعيه وجوه المصلحة فى النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التى يقوم الشرع عليها ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لاتحاد علة الحكم فى الأمرين ؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالقيـــاس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودا وعدما ، كما أن المعقول دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل وعلى ذلك ففى كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للاسلام سواء بنص أو باجتهـــاد حيث لا نص .

واذن فليعمل المفكرون فكرهم فى تعرف العلل واضـــافة الأحـــكام اليها وضبط النتائج ، وتفريع الفروع فى فهم واحاطة لخلق الأحكام وابتكار الآراء ، وفى ذلك تتفاوت الملكيات ، وتتميز الكفايات من الكفايات ، تتميز الزجاج من البللور وتميز البللور من الماس ، ذلك يخترقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الأضواء بعض الانعكاس ، أما الماس فهـــو الماس ، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيوضا من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفة الى معارك المتكلمين فى صدر شبابه فخلف هذا النزال أثره فى ملكة الجدال ، وربط حاضره بماضيه فى حيـــاة عملية ذات ألوان وأحداث .

والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهى سواء فى الفقه أو القضـــاء أو الدفاع لأنهـــا جميعا تقـــوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس .

لم يك أبو حنيفة الا غلاما طرى الاهــاب عندما صحب الشعبى فى سفينة فسمع الشعبى يقول : (لا نذر فى معصية ولا كفارة فيه) ، فاستوى الفتى الرشيق الفهم ، مناضلا راشق السهم ، يقول : (بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل فى الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال « وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا » وقد أوجب فيه الكفارة...)فلم يحر زعيم المحدثين جوابا سوى أن قال : أقياس أنت ؟.

والظهار لغة هو أن يظاهر الرجل من امرأته اذ قال لها ، أنت على كظهر أمى ، وشرعا هو تشبيه المسلم زوجته أو جزءا منها بمحرم عليه ، مؤبدا .

ولو امتد الأجل بالشعبى أعواما لجاءته الأيام بالجواب .

وانه لفى المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه فى مسألة يديرونها بينهم اذ صاح من ناحية المسجد فتى أزله الخلق الشكس فقال : ما هــذه المقايسات ؟ دعوها فأول من قاس ابليس ، فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسليب الحجة ، بل أقبل على الفتى يكبته بآى الكتاب ، فذلك أدنى ألا يرتاب . قال : يا هذا وضعت الكلام فى غيــر موضعه ، ابليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » . وقال تبارك وتعالى «فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين » . وهذا القياس الذى نحن فيــه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأنا نرده الى أصله أمر الله تعالى فى كتابه ، أو الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضا فى ردنا كتــاب الله و سنة رسوله والاجماع، فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى، فابليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى ورده فكيف يستويان ؟.

أنت الفتى هذه الحجج بغتة فبهتته ، وكأنما أحاطت به خطيئاته فرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : غلطت يا أبا حنيفة وتبت ، نور الله قلبك كما نورت قلبى ...

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الامام فى الصلاة تكفى عنها قراءة الامام فقصد اليه رهط من أهــل المدينة يحاجونه ، قال: لا يمكننى مناظرة

الجميع فولوا أعلمكم ، فاختاروا لجداله أعلمهم ، قال : وهل اذا ناظرته أكون قد ناظرتكم ؟ قالوا : بلى . قالَ : ان ناظرته لزمتكم الحجة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم . وهكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا فأقروا بالالزام .

كان يبحث عن علل النصوص فيجرى الحكم الشرعى على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ ، فاذا سمع حديث النبى عن الزكاة أن فى كل أربعين شاة شاة ـــ رأ ىآن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشـــاة من الأربعين أو بما يعادل ثمن شاة . واذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شعير . قال : انما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو ثمن صاع أو بدقيق الصاع .

واذا فسر رواية أبى هريرة لحديث الرسول عن رد الشاة المصراة بعد احتلابها ورد صاع من تمر (وهى الشاة التى تربط ضرعها قبل البيع حتى يظن المشترى بها غزارة اللبن) فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع .

ذلك بأن أبا حنيفة يرى أن ضمان التلف فى الشريعة هو أن يرد المثل ان كان التالف من ذوات الأمثال أو القيمة ان كان من ذوات القيمة .

أما المدرسة الأخرى فترى أنه لا يجزىء عن شيء من ذلك ثمنه أو مثله .

***

قالوا انه يتـــرك النصـــوص والأحاديث لأقيسته ! والحق غير ذلك فأبو حنيفة هو القائل : (.. وكل شيء تكلم به عليه الســـلام فعلى الرأس والعين قد آمنا به وشهدنا بأنه كذلك ، ونشهد بأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بشيء يخالف أمر الله ، ولم يقـــل غير ما قاله الله تعـــالى وما كان من المتكلفين . قال تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله ..) وان كتب أبى حنيفة لملأى بترك القياس الى الحديث .

قال زفر : لا تلتفتوا الى كلام المخالفين فان أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا فى مسألة الا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا بعد عليها .

والشافعى نفسه يقول : « أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به ... »

انما كان الأمر عند أبى حنيفة وصحبه أمر ثبوت للسنة أو عدم ثبوت .

قال ابن خلدون : (واعلم أيضا أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا فى الاكثار من هذه الصناعة . وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين الى أن منهم من كان قليل البضاعة فى الحديث ، فلهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد فى كبار الأئمة .. وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التى تعترضه فيها ...) .

وقديما قدم على ابن أبى طالب القياس على خبر الواحد .

قال أبو يوسف : (ما خالفت أبا حنيفة فى شىء فتدبرته الا رأيت مذهبه الذى ذهب اليه أنجى فى الآخرة وكنت ربما ملت الى الحديث وكان هو أبصر بالحديث منى ..)

وفى سبيل الاستيثاق من الروايات اعتزت مدرسة الكوفة وأستاذها بسلسلة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى بدار الحناطين بمكة ، فسألة الأوزاعى عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع فى الصلاة وعند الرفع منه ، فأجابه : لأنه لم يصح عن النبى شىء فيه . قال الأوزاعى : كيف وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيهعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه الا عند افتتاح الصلاة ولا يعود الى شىء من ذلك .

قال الأوزاعى : أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبيه وتقول حدثنى حماد عن ابراهيم ؟

فأجاب أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى .

وكان ابراهيم أفقه من سالم .

وان كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبه ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله !

أما عن سلسلة الأوزاعى : فالزهرى هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب ــ وكان عبد الله كثير الاتباع للآثار ينزل منازل الرسول حيث كان يصلى ، ويتعهد الشجرة التى جلس تحتها الرسول حتى لا تيبس ، لكنه كما قال عنه الشعبى وهو أحد خصوم الرأى : كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه .

أما سلسلة أبى حنيفة فهى سلسلة الكوفة : حماد هو أستاذه حماد وابراهيم هو ابراهيم النخعى ، وعلقمة هو علقمة النخعى الذى قال عنه ابن مسعود انه ما قرأ شيئا أو علمه الا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود ابن يزيد بن أخى علقمة وتلميذ معاذ وابن مسعود وأما عبد الله فهو عبد الله ابن مسعود العظيم .

ولقد كان الأوزاعى يجادل فى أبى حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة .

قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعى فرأيته ببيروت فقال لى : يا خراسانى من هذا المبتدع الذى خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت الى بيتى فأقبلت على كتب أبى حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت فى ذلك ثلاثة أيام فجئت يوم الثالثة وهو مؤذن مسجدهم وامامهم والكتاب فى يدى فقال : أى شىء هذا الكتاب ؟ فناولته فنظر فى مسألة منها ... فما زال قائما بعدما أذن حتى قرأ قدرا من الكتاب ثم وضع الكتاب فى كمه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب ، حتى أتى عليها ثم قال لى : يا خراسانى من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لقيته بالعراق . فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه . قلت : هذا أبو حنيفة الذى نهيت عنه .. »

فلما اجتمعا بمكة جاراه فى تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك ولما افترقا قال الأوزاعى لابن المبارك : « غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت فى غلط ظاهر . الزم الرجل فانه بخلاف ما بلغنى عنه . »

وكان كشف الأمور للامام « الأوزاعى » كان يكشفها للامام «الثورى» جاءه رجل يقيمه الهم ويقعده قال: حلفت بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل

أن تكلمنى . قالت : والعتاق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمنى ــ فكيف أصنع ؟ قال : اذهب فكلمها ولا حنث عليكما ، فذهب الرجل الى « سفيان الثورى » فهرول سفيان الى ابى حنيفة يقول : « أتبيح الفروج » ! قال أبو حنيفة : « هو كذا : انها لما قالت له وعلى العتاق الخ .. شافهته بالكلام فانحلت يمينه فاذا كلمها لم يقع الطلاق » .

قال الثورى : انك لتكشف ما كنا عنه غافلين .

حقا : كم كان صحيحا قول الشافعى : (قول أبى حنيفة أعظم من أن يدفع بالهوينا . وقول عبد الله بن المبارك : رأيت الأكابر فى مجلس أبى حنيفة صغارا وما رأيت أحدا حاور أبا حنيفة الا رحمته) .

بل قوله : هاتوا لى مثله والا فدعونا ولا تعذبونا .

***

ويتصل بمذهب أبى حنيفة فى القياس مذهبه فى الاستحسان وهو الأخذ بمصلحة جزئية فى مقابل دليل كلى يلجأ اليه اذا كانت نتائج القياس لا تستساغ . بأن كان طرد القياس يؤدى الى غلو فى الحكم ومبالغة فيه فيعدل عنه فى بعض المواضع ويفتى المجتهد بما يحسن وقعه فى النفس فى تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذى تحس به نفسه حكما غير ما ينتجه القياس .

قال عليه الصلاة والسلام : (استفت قلبك وان أفتاك المفتون ...)

ولقد نعوا على أبى حنيفة تركه القياس الى الاستحسان ، قولا بأنه خروج منه عن قاعدته الكبرى وهى القياس ، لكن الذين آخذوه على الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

بل كيف يقف المجتهدون دون الفتوى اذا ساء القياس بأن قبحت النتيجة . رووا عن مالك أنه قال : (تسعة أعشار العلم الاستحسان) .

ان القياس أداة تحركها عين باصرة ويدكلها احساس . والمفكر الذى كانه أبو حنيفة ليس هو الذى تستعبده أدواته . ومن يصنع شيئا لا يسجد له ، والرجل الذى يطبعه الحسن فى ذاته ، وفى كل أسباب حياته ، لم يكن ليتجنبه فى مقولاته .

قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه فى المقاييس فينصفون منه ويعارضونه حتى اذا قال استحسن لم يلحقه واحد منهم لكثرة ما يورد فى الاستحسان فيدعونه جميعا ويسلمون له . وقال ابن شبرمة : ان كان لا يجوز لأحد أن يتكلم فى دين الله برأيه فأبو حنيفة اذا قال استحسنت .

حضر مع العلماء وليمة رجل زوج ابنتيه من أخوين فخرج الولى وهو يقول : أصبنا مصيبة عظيمة ، غلطنا فزفت الى كل واحد غير امرأته وأصابها. قال سفيان : لا بأس بذلك كما حكم به على كرم الله وجهه ... فقال : أرى أن على كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل الى زوجها. فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر : قل فيها . قال سفيان : وما عسى أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة : على بالغلامين . فأحضرا ، فقال لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التى زفت اليك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم امرأتك التى عند أخيك ؟ قال : هى فلانة ، قال : قل هى طالق منى . ثم زوج كلا المرأة التى مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من فتياه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلوموننى على حبه ...! وسفيان ساكت لا يقول شيئا .

وكلا الحكمين حق فحكم على حكم الوطأ بشبهة وهو يجب فيه المهر ولا يرفع النكاح ...

وحكم أبى حنيفة حكم بدرأ ما يترتب من القسوة بعد اذ أفضت كل امرأة الى رجل بما أفضت من محاسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره . فكان حكم أبى حنيفة الهاما موفقا ، لأن لصاحب عدة الوطء بشبهة أن يعقد بالموطوء فيها ، وفى ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل مسعرا يقبله .

* * *

قال أبو حنيفة يوما لتلميذه داود الطائى عن العلم : أما الآلة فقد أحكمناها . قال داود : وهل بقى شىء ؟ قال الامام : العمل .

فلننقل عنه هذا التصوير للعلم الى الآلة التى صيرت علمه مذهبا فى العالمين وهى أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآلتين فاختلطا فى يده وصارتا كالمولد العظيم للقوى ، وجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما (الرأى) أو كما قال الشافعى أصبحا اسمين لمعنى واحد ، ذلك بأن الاجتهاد لا يكون الا بدلائل والدلائل هى القياس ، واذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب فى كل الآلات والمحركات ، واذا بحلقات الفقه تضحى كمعامل الانتاج الكبير حتى تكاد الآذان تسمع وقع العجلات ودق الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثنى عشر ، واذا بهذا الروح الخالق يهب الحياة للانتاج الهائل الذى خلفه لنا القرنان الثانى والثالث وما زال يهب الفقه حياته كلها الى الآن .

حقا ان هاتين الآلتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبى والصحابة قد اجتهدوا وقاسوا لكن الرسول اذ يشرع هو صاحب الشريعة واجتهادات ابن الخطاب عمريات ليس يقدر عليها سوى الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبى بكر وعلى . وما عداها من اجتهادات الصحابة والخلفاء لم تك الا ومضات خاطفة لمعت فى المناسبات ، أما الفتى الخزاز كما يسميه ابن أبى ليلى ، فلم يكن أميرا للمؤمنين ولا واليا ولا قاضيا ، لكنه جعل هذه الومضات العابرة شمسا تغمر الأكوان كلها بالنور واتخذ منها تمثالا شامخا يربط كل ما فى الوجود الى قاعدته بخيوط من الشعاع الذهبى المسمى بالفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث وفيما قد لا يحدث من الأمور .

وأية جسارة كانت هذه الجسارة !

لقد كان أبو بكر يقول : (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى اذا قلت فى القرآن مالا أعلم) وهو مقال ينم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب وتفسير آياته .

سئل أبى بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المقدمين عن شىء فقال : أكان هذا ؟ قال السائل : لا . قال : فأجمنا حتى يكون فاذا كان اجتهدنا لك رأيا .

وروى عن زميله زيد بن ثابت أنه كان اذا استفتى فى مسألة سـأل عنها ، فان قيل له وقعت أفتى فيها . وان قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون .

وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعا منه ، رغم أنه تصدى لافتاءالناس ستين عاما وأن أهل الشام مالوا الى توليته الخلافة فزهد فيها .

كان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن فى الافتراض نجامة أو رجما بالغيب أو تحديا للمستقبل ، مخافة أن يحللوا حراما أو يحرموا حلالا دون المام تام بالظروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال : لم أسمع فى هذا شيئا . قال السائل : فأخبرنى أصلحك الله برأيك . قال : لا . ثم أعاد عليه . فقال : أرضى برأيك . فقال سالم : انى لعلى ان أخبرتك برأيى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا فلا أجدك .

قال ابن سيرين أول من قاس ابليس . وماعبدوا الشمس والقمر الا بالمقاييس . وروى الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهرى بشىء من الرأى فقبض وجهه كالكاره ثم جاءه بأحاديث من السنن فتهلل وجهه وقال : اذا جئتنى فأتنى بهذا .

وكان الشعبى يقـول : (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القـرآن والروح والرأى) .

ويقول : احفظ عنى ثلاثا لها بيان اذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك أرأيت (أى لا تفترض) فان الله تعالى قال فى كتابة (أرأيت من اتخذ الهه هواه ...) واذ اسئلت عن مسألة فلا تقس شيئا بشىء فربمـا حرمت حلالا أو حللت حراما ، واذا سئلت عمـا لا تعلم فقـل لا أعلم وأنا شريكك .

كا نذلك قبل أن يظهر علم أبى حنيفة ، وكان الأمر كذلك من بعـد ظهوره . روى أسد ابن الفرات بعد اذ قدم الى المدينة على مالك (وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلوننى أسأله فاذا أجاب يقولون قل له : فاذا كان كذا فضاق على يوما فقال لى : هذه سليسلة بنت سليسلة ، ان أردت هذا فعليك بالعراق) .

وفى كلمة مختصرة كان أهـل الأثر لا يأخذون بالرأى الا اضطرارا مكرهين عليه اكراها ، ولا يستخرجون أحكاما لمسائل لم تقع بل لا يفتون الا فيما يقع .

لكن أبا حنيفة اذ يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع ، لا يرق مما قدمت يداه . بل يفرضها على الفقهاء فرضا ، ويهيب بالكافة أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ، ثم يقف الى جانبها جبارا يملأ العـين والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين عقودا ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى للهجرة . معلنا للملأ أنهـا أداته التى يخلق بها مالا يعلمون ، وأن العقـل والنقل . أو الفكر والنص ، همـا الأساس الذى تبى عليه أصـول الفقه الاسلامى وفروعه ، حتى اذا سجلوا عليه وزر هذه الأداة باهى بمـا سجلوا عليه وكافح فى سبيله .

ذلك الرجل اذا لم يك مخترع هذه الأداة فانه كاشفها الذى جمع القطر فصيره من فيض عقله بحـارا ، والكشوف العلمية لم تختـرع المكتشفات اختراعا ، وانما بصرت بها بين المجاهيل . والرسـالات الفكرية كالكشوف تهدى الى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمهيد والاعداد والارتياد .

لم تكن الكهرباء ابتداعا ، ولا الراديوم ، ولا البسترة (التعقيم على طريقة باستور) ولا أمثالها وانما هى كشـوف هدت اليها الصدفة حينـا والكدح والضنى أحيانا ... وكذلك كان كشف المولد الذى قدمته مدرسة الكوفة الى العالم الفقهى ، أثرا لجهد ناصب دام أربعين عاما فى عهـد أبى حنيفة ، بعد أن ظل قرنا كاملا من الزمان جنينا يضطرب فى بطون التاريخ الاسلامى حتى قدمته يد أبى حنيفة الى الوجود .

ترى ماذا كان مصير الشريعة الاسلامية اذ هى وقفت فى حدود ظاهر النصوص أو اكتفت بمدلولاتها المباشرة . سواء فى المائتى آية أو العـدد القليل المسلم به من الأحاديث أو غير المسلم به منها أو بذلت الاجتهاد الفردى أو القياس العرضى ! ترى ماذا كان مصير هذه الحضارة الاسـلامية اذا لم تستند الى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة التى يهدف الى نشرها هذا الدين ؟؟ ماذا كانت صانعة هذه الآلاف من الملايين

وهذه الهزات الفكرية وهذه الحياة الدائبة المتجددة ، وهذا العالم المتباين المتغاير ، وهذه القرون التى يحمل كل منها طوابعه ، وهذه البقاع والأجناس والحضارات ، من أسيوية الى أندلسية ومغربية وهنـدية وصينية وأوربية ومصرية وغيرها ! ومن حضارة القرون الأولى الى حضارة القرون الوسطى الى حضارة الآلات .

انما يرجع الفضل فى سـداد الشريعة الاسـلامية لمطالب الحضـارة الاسلامية الى هذا المولد ، الدائم التوليد ، مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة يتضاعف نباتها دواليك حتى يكسف القمـران ، أو كالمتواليات الهندسية التى تجعل العدد البسيط (١٠ مثلا) مائة مليون فى ثلاث عمليات فحسب ، أو كالجواهر الأصلية التى تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات .

لكأنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول : (من يطلب الفقه ولا ينفقه مثل الصيدلانى يجمـع الأدوية ولا يدرى لأى داء هى كذلك طالب الحديث لا يعـرف وجه حديثه حتى يجىء الفقيه) والذى يقوله عن طالب الحديث هو القول الصحيح فيمن لا يتصرفون فى النصوص ، فأولاء يلتزمون النصوص كأولئك يختزنون الدواء ، لا ينفعون به ولا ينتفعون . عجزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجعة ، مركبات نافعة ، تتلاءم فى كمياتها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصـناف الداء ، إما الطبيب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشفى الداء كما يشاء خالصا أو ممزوجا أو متفاعلا .

بهذا المولد الدائم ، وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفة عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سـماء الفقه على عمد الحرية . فلم يبق فى الأمة مشـاكل بلا حلول ، ولم يعـد الفقه الأسـلامى محجورا عليه أن يملأ كل فراغ فى مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفة (يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه) .

فيا للفكاهة التى زعموا عن الشافعى تعويضا بكتب أبى حنيفة وتلاميذه عندما سيق الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشـيد حيث قال (.. قدمنا على

هرون ... ومعى خمسون دينارا ... ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقه فأنفقت الخمسين دينارا على كتبهم، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان اذا قيل له : عندك فرشنان ! قال نعم . فان قيل له : عندك زئبق ! قال : نعم : فان قيل له : عندك خيزى ! قال : نعم ، فاذا قيل له أرنى ؟ وللزق رءوس كثيرة ، فيخرج له من تلك الرءوس !وانما هى دهن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة انما يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وانما هم مخالفون له ...)

بلى هو دهن واحد حقا كما نسبوا القول الى فتى قريش العظيم ، لكنه أصول الشرع الاسلامى وقواعد الفكر السليم ، وهو دهن يخـرج الزئبق والخيزى والفرشنان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان ، كما أخرج هو منه كل شىء بعد قليل من الزمن ، واذا كان كتاب أبى حنيفة قد خالفوا الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المثابين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلا يتكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذامه . فان ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالاجماع والربع الرابع لا يسلمه لهم ، قال : وكيف ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم ثم أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ فاذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حسن السؤال نصف العلم) وعلى هذا الحديث فرع الملك عيسى الأيوبى فقال مقالة ابن سريج .

وفى الحق ان الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل التى تحتاج الى حلول ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف الاستعراض وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن البعض قوة السؤال وضعف الجواب ومن أجل هذا كان للأسئلة رجال وللأجوبة رجال .

قيل عن الحسن بن زياد انه أحسن الناس سؤالا ولم يكن جوابه على قدر سؤاله .

أما أبو يوسف فقد قيل انه أحسن الناس سؤالا وجوابا . ولما مدح الشافعى محمد بن الحسن أثنى عليه « لبيانه وتثبته فى السؤال والجواب والاستماع » أما محمد فقال عن الشافعى (ان كان أحد يخالفنا ونثبت له فالشافعى رضى الله عنه) قيل : ولم ؟ قال « لتأنيه وتثبته فى السؤال والاستماع » .

ولكل من الضعف فى السؤال أو فى الجواب أسباب لسنا بسبيل شرحها ، فبحسبنا التنبيه الى أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الاجابات الضافية ، فكان لها فيما أصابت فضل السؤال وفضل الجواب وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد . وكان لها فوق هذه الأفضال جميعا فضل السبق فى التدوين والترتيب والتبويب .

أنجب الفقه الاسلامى هذا الانجاب ، وتبارت فى مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرنين من الزمان ، وقف بعدهما التيار اذ أوفى على التمام ، حتى اذ مات الطبرى سنة ٣١٠ ذهب بموته آخر الأولين ، وأصبح الناس من بعد وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجش البغيض : أن قد أقفل باب الاجتهاد ! وانفتح باب التقليد ، وسرت عدوا كالوباء يتخطى القرون والقارات ، وانطبع العلم بطابع الجمود : ومسخت روحه وأصبحت قضاياه كالألغاز .

* * *

ستذكر الانسانية هذه اليد لأبى حنيفة عليها وعلى الاسلام فتسلكه فى سلك المناضلين المتلألئين فى ظلمات الاضطهاد ، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحر مزاياهم . وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم — وهما من أصل واحد — لأن الماس يتحمل الضغط العالى ولا يفنيه الحريق وكلما صبت عليه النار ردها أنوارا ، أما الفحم فهو الفحم ، ظلمات بعضها فوق بعض . لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود .

سيذكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الامام الأعظم ، فلو لم ينغض اليه الحمقى رؤوسهم لدلوا على أنه لا وزن لعلمه ولا لعمله فيقدر ما

يوزن الرجل فى ميزان الرجال يوزن له من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع ولا عجب اذا كان الرجل صاحب الرأى هو الرجل صاحب الخصوم .

والعمريات الهائلة التى خلد بها مجد الاسلام لم تمنع أن يكون للفاروق خصماء رأوا فى وجهاته التشريعية واجتهاداته بعدا عما ذهبوا اليه من التمسك بظاهر الكتاب والسنة ، وهو هو عمر الذى كان فى يده من كنوز الامبراطورية الاسلامية ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ولكنه لم يك يملك الا قميصه ودموعه وتقواه ...

وقف عليه اعرابى فقال : يا عمر الخير جزيت الجنة : اكس بناتى وأمهنه .

قال عمر : فان لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الاعرابى : والله عنهن لتسألنه : اما الى نار واما الى جنة .

فبكى حتى أخضبت لحيته ، وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لشعره .

ثم قال : والله ما أملك غيره .

ولم تمنع عن عمر المطاعن شهادة الرسول له أنه لم ير عبقريا يفرى فريه ، أى يصنع صنيعه ، وأن (عمر معى . والحق مع عمر حيثما كان) و (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) .

ولم يك أبو حنيفة عاطلا من الفضل العمرى وأشباهه بل هو كان قطب الزمان ، زهادة وعبادة ، وقوة ايمان وسداد رأى ، وزعامة فكر ، وهى جميعا أسباب خصومه لأنها أسباب كرامة !

وسينسى الناس ما سال فى هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم فأبو حنيفة الامام الأعظم لأهل السنة فى علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية ...! فلا يجر المجرور ، وان كانت تجره حروف الجر الغلاظ ... !

قال الليث بن سعد : « بلغنى أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت اليه قاصدا فلقيته بمكة فسألته عن مسائل كثيرة فى أبواب متفرقة وسألته عن

مسائل الجنايات وعن قتل الخطأ وشبه العمد فقال لى فى بعض ما أجابنى ، (وان ضربه بأبو قبيس) — جبل أبى قبيس — وفى روايةأخرى بأباقبيس ، فقضينا المناسك ورجعنا ، ثم بلغنى بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت اليه قاصدا فأردت أن آخذ عليه حرفا واحدا ما قدرت عليا ، فما أدرى أندرت منه تلك الكلمة أو تكلم بحجة . »

فيا لأدب الليث ويا لحماقة الخصوم ! انها لم تندر من أبى حنيفة وانما تكلم بحجة . فقد يكون تكلم عن أبى قبيس باعتباره علما والعلم لا يغير . وابدال الواو فى « أبو قبيس » ياء عند الجر أو ألفا عند النصب واجب يعرفه الأحداث فلا يجادل فيه امام الأمة الأعظم ، المفسر الكاتب ، المتكلم الأستاذ ، الفقية .

تلك واحد ةفى اللغة ، وهذه آمثالها فى العقيدة .

فأبو حنيفة مرجىء اذ يقول ان العمل ليس ركنا للايمان .

وأبو حنيفة زنديق ، تاب ، ثم فسق عن أمر ربه فتزندق مرة أخرى ، ثم تاب . وانه كافر تاب من الكفر مرات !

بل هذا رجل يقول : أراه كان يهوديا !

وهؤلاء آخرون يقولون : كان جهميا !

فلندع قولهم انه كان زنديقا أو كافرا أو يهوديا .

أما آنه كان من آشياع جهم بن صفوان الذى كان يقول ان الانسان مسير لا مخير وينفى صفات الذات الالهية . ولا يشترط للايمان النطق به ، فحسبه تكذيبا أن جهما قصد اليه يجادله فأجابه بقوله (الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار .) ثم طفق يقرع حججه واحدة اثر واحدة حتى فصل عنه جهم وهو يقول « لقد أوقعت فى الخلد شيئا فسأرجع اليك » .

وكيف يكون جهميا من كان مذهبه أن الصلاة خلف الجهمى لا تجوز .

أما أن أبا حنيفة مرجىء ، فلعلها من تهم الخوارج أو المعتزلة الذين لا يقولون بالارجاء فليس ثمة ريب فى أن عامة المسلمين مرجئون على المعنى

الذى شرحناه من قبل لا يكفرون مرتكب المعصية كالخوارج ولا يجعلونه فى منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وانما يرون له التوبة والمغفرة ويتركون حسابه الى الله .

قال عمر بن حماد بن أبى حنيفة « أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت لعل الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه فان كان فيه رضاك فذاك والا فعظنى . ان الامام كان لا يخرج أحدا من الايمان بذنب قال أصاب . قلت : وكان لا يكفر قاتل النفس . قال : أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ . قال : بلغنى أنه كان يقول ايمانى كايمان جبريل . قلت : بلغك الباطل كان يقول ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام الى النبى صلى عليه وسلم كما بعثه الى من قبله فأمره أن يدعو الناس الى الايمان . فالايمان ايمان واحد لا ايمانان أو ثلاثة ، ولا ايمان هذا واقراره غير ايمان ذا واقرار ذا . فتبسم كالراضى به ولم يقل شيئا . قلت : وكان ينكر الشك فى الايمان . قال : وما الشك فيه ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون اننا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدرى أنا مؤمن أم لا . فأنكر وقال : من يقول هذا . »

ذلك قول مالك فى قول أبى حنيفة .

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجلا هو المثل العالى همة فى الدين ، يحيا حياة طويلة ليست فى عداد الزمان ، الا سجدة مخلصة لله ، ولا يبقى من ماله الضخم الا النفقة ، ويسمعونه بآذانهم فى المسجد ، وفى كل مكان ، يجاهد بقلبه وبسانه وبيده حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وهم يقرأون ويستمعون الى كتبه « العالم والمتعلم » و « الفقه الأكبر » وكتابه فى الأرجاء الى عالم البصرة عثمان البتى والى القواعد الواردة فى الوصية المعزوة اليه وفيها جميعا الحجج الباهرة على أهل الالحاد والبدع . وهم يعرفون افحامه لأهل الالحاد ويتناقلون تمثيله للعالم بالسفينة ، ولخالقه بالسفان حيث يسائل المشككين . (... ما تقولون فى رجل يقول لكم ان سفينة مشحونة بالاحمال ، مملوءة بالأمتعة والأثقال قد احتوتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها .

هل يجوز ذلك فى العقل ؟ فقالوا : لا ، قال : فيا سبحان الله اذا لم يجز فى العقل وجود سفينة تجرى مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ..؟)

فلم يبق الا التهمة التقليدية التى وجهت من قبل الى السيد المسيح وهى أن أبا حنيفة يحرض على عدم التعاون مع السلطان ! لكن السلطان ليس أذنا لهم ، فلا يلف لفهم ، ولا تقع الواقعة . فلم يعد فى جعبة السهام الا أخيها : سهام القذف والكلم القوارص .

فأبو حنيفة من أبناء السبايا ... ومن الدجاجلة ، .. بل انه ليروى عن شريك أنه قال :

(لأن يكون فى حى من الأحياء خمار خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبى حنيفة) وانه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم منه على الاسلام ... وهو كان جربا يراه الرجل مقبلا نحوه فى المسجد فيقوم قائلا لأصحابه ، قوموا لا يعرنا بجربه ... فيقومون ... وهو لا يثق بنفسه فيحض تلميذه أبا يوسف على الشك فى مقولاته بقوله : لا تروعنى فانى والله لا أدرى أمخطىء أنا أم مصيب ! ثم انه أجرأ الرجال على الرجال . قالوا ... ان رجلا جاءه من خراسان يقول : عندى مائة ألف مسألة أريد أن أسألك عنها قال أبو حنيفة : هاتها . وتساءلوا فيما بينهم أسمعتم أجرأ من هذا ؟

والجواب أن الجرىء على الحق ليس هذا المجيب وانما ذلك السائل الوافد من خراسان لا يعرف عنه الا انه امعة من الامعات ، ومع ذلك يزعم أنه يعى مائة ألف مسألة ! فمن أين له المائة ألف ؟ ومن أين له عقل يحفظها أو لسان يبسطها !! ولماذا لم يجىء ذلك اللوذعى بمسألة أو بضع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات اعجازه الكبرى ؟.

لقد كان جواب أبى حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات .

ومن قبل أبى حنيفة كان ابن سيرين اذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل أمسكها حتى تسأل عنها أخاك ابليس !

والأغلوطات — كما فسر الأوزاعى نهى النبى عن الأغلوطات — هى صعاب المسائل .

سأل عمر بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع نابى ثعلب فلم يرد عليه شيئا .

أما أبو حنيفة فلم يسفه السائل بالكلام كابن سيرين ولا بالامتناع عن الكلام كابن أنس لكنه أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رهن أمره فسفه الرجل نفسه وأخزاه الله .

وأما عن الرد على مائة ألف من المسائل فان قواعد أبى حنيفة وفروعها تحوى أكثر من ذلك وأمثاله لمن يشاء

يا لله أصحيح أنه لم يولد فى الاسلام من هو أشأم من أبى حنيفة على الأسلام !! أصحيح أن وجود أبى يوسف أو محمد أو داود الطائى أو زفر وأمثالهم فى حى من الأحياء شر عليه من وجود خمار يبيع فيه بنت الحان !

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام « ويل لعالم أمر من جاهله »

أم أنه المجد وارتفاع المقام يعنيه محمد بن الحسن اذ يسمع قدح الخصوم فى أستاذه فيقول :

محسدون وشر الناس منزلة　　من كان فى الناس يوما غير محسود

أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك :

حسدوا أن رأوك فضلك الله بما فضلت به النجباء

أو كما قال هو ذات يوم اذ أقبل عليه رجل ، فسأله : من أين أقبلت ؟ قال من عند شريك وكانت بينهما وحشة كما رأيت — فرفع رأسه وقال :

ان يحسدونى فانى غير لائمهم　　غيرى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لى ولهم ما بى وما بهمو　　ومات أكثرنا غيظا بما يجد

لقد كانت قاعدة (أن السلف لا يخالفون) فى قدسيتها عندما أعمل فيها معاوله ، ولم يك شاع فى الوسط العلمى أن أحكام المعادلات ليست تعبدية ، وعزيز على أنفس المتعنتين أن يقبلوا الاتجاه القاضى على ما ألفوه

دون أن يتجمعوا ضـده ، أو يصبروا على الجهر والالحاح والتحـدى بأن رأى انسان من الأناسى يعتبر مصـدرا للحكم على حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم !

أم أنه ليس الحسد ، وليس الجهل ، ولا التعصب هى التى جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وانمـا هى الخصومة القـديمة الضاربة بجرانها بين القديم والجديد .

لم تك هذه التهم الا تهما تقليدية يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ فى كل زمان ومكان !. شنشنة عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أدعيائه ، تدعى أيا ما تدعى ، بأسماء مختلفة أو متشابكة ، لكنها لمسمى واحد قـد يسمى فى المشرق بالزندقة . تحويرا لتعبير فارسى يراد به الالحاد ، ويسمى فى الغـرب بالهرطقة Hérésie يراد به ـ فى الواقع ـ أعداء الكنيسة فى الاعتقاد .

لكأنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين وان كانت الدنيا لا تضيق بأجسادهم ! والا ففيم لا يطيق الناس قيام المجد الا بعد أن يزايل صاحبه دنياهم ، فيصبح معنى من المعانى وذكرا فى الزمن !

وكأنما ترسل النفس القـوية على الأرض شـعاعا تعشى من ضيائه الأبصار ، فاذا صعدت الى بارئها تنفس الصعداء هؤلاء الملتصقون بالثرى . وفتحوا أعينهم فى أفق أوسع وألمع !.

هنالك يبايع الأحياء موتاهم ويقيمون التمـاثيل لمن أخلى مكانه فى الوجود .. فاذا بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين غير مختارين ، ورضوا بهم كما يرضون بقضاء الله الذى لا يرد ، وبظواهر الطبيعة التى لا تقاوم .

لا جديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما قارفه خصوم ابى حنيفة فى عهده ، ولا فيما صنعه خصوم الفكر من قبله ومن بعده ! لقد فقد (ليكرج) من ألفى عام قبل ذلك احدى عينيه من جراء احدى شرائعه !

انما الجديد فى صدد أبى حنيفة أن الولاة لم يسمعوا ولم يخدعوا ، على فرط ما استمعوا وما انخدعوا فى حوادث الايقاع بسواه . فلعلها بركة

السنة على امام أهل السنة الأعظم ، فلم تسمل له عين ولم تقطع له ذراع ، ولم تصبه محاكم التفتيش ولا مذابح العقائد ، وحمى التـــاريخ مدرسة الكوفة وامامها . فلم يقع فيها ما وقع فى أثينا وروما وبيزنطة ومدريد وباريس وبغداد وغيرها فى الشرق والغرب ، فى عهد الحضارة الأولى أو فى القرون الوسطى أو الحديثة .

هنا لك ترى فى العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالاعدام خمسمائة قاض من الجماهير . لانه يفسد عقائد الأثينيين ! وأرسطو يهــرب خوفا من تهديد مواطنيه ويموت فى مهربه !!

وترى فى مطلع العصر الحديث ، بين مصــدق ومكذب ، (كلفن) زعيم الاصلاح الدينى بعد مارتن لوثر ، فارس الحلبة لاتهام برونو بحجة الهرطقة !

وهناك حوكمت القديسة جان دارك وسرفاتتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشرى !

وهنا تجد المعتصم ــ بطل عمورية ــ وأخا المأمون الفقيه ــ يجلد ابن حنبل بالسياط والجالد والمجلود صائمان ... ! وابن عبد القدوس ، والبويطى واحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ، وابن تيمية وأمثالهم .

هنا وهنالك لقى الفكر الانسانى من العذاب ما تندى له الجباه ...

لقد صعد هذا الفكر الانسانى درجات المشنقة ، وهوت عليه المقصلة ، وشرد ، وجرد ، وحرم الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصلة ويملأ الأرجاء بالاشراق .

وكانت غيابة السجن له أولى درجات الخلود .

الباب العاشر

في القضاء

« كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فانك تحترق »

(أبو حنيفة)

كانت وظيفة الحكم فى الكوفة عملا لا يغبط عليه من وسد الأمر اليه ، وكان هم الولاة المقيم المقعد أن يستقضوا عليها أفقه الفقهاء .

فاذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالى ...

ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فلعثمان بن عفان فلعلى بن أبى طالب ، لظفر منه بقوله : « أنت أقضى العرب » . وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله لم ينقطع الا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج فأقاله ، ومات فى العشرين بعد المائه من العمر وفى الثمانين من الهجرة .

وتلاه « الشعبى » . وما أدراك من الشعبى ! بعثه عبد الملك بن مروان الى ملك الروم . فلما قفل راجعا سلمه الملك خطابا الى أمير المؤمنين : وقرأ عبد الملك الخطاب فاذا فيه « عجبا من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا رسولك !! » قال الشعبى « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسدا ... »

وبلغ ذلك ملك الروم فقال : لله در أبيه ، ما أردت الا هذا .

جلس الشعبى للقضاء نحوا من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ فخلف من بعده (الأستاذ الأول لأبى يوسف) محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى سنة ١٤٧ .

وكان طبيعيا أن تشرئب الأعناق الى أبى حنيفة ليتولى منصب القضاء ، بعد أن جلس مجدين ابن مسعود فى الافتاء ، فاتجه اليه يزيد ابن هبيرة عامل مروان على العراق (١٢٧ — ١٣٢) حين قامت الفتن بالعراق فى أخريات أيام بنى أمية .

جمع يزيد ببابه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، ودواد بن هند وولى كل واحد منهم صدرا من عمله ، وتنازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون فى يده خاتم الدولة يختم به كل أمر ، وجعل له حق انفاذ الأحكام التى يصدرها القضاة والخراج أيضا وختم أوامر الوالى ، فرفض أبو حنيفة ، وألح

يزيد وأشار أصحاب أبي حنيفة عليه بالقبول فقال: « لو أراد أعدله أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب ، فو الله لا أدخل في ذلك أبدا .. »

قال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فانه هو المصيب .

وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط ، قيل : ضربوه مائة سوط وعشرة كل يوم عشرة أسـواط فلم يزده العذاب الا ثباتا .

لكن للدولة مآرب أخرى في رضى الأستاذ ، فان لم تفلح في أن تضمه الى رجال الحكم فلتتمدد اليه بسبب من الأسباب . وعرض عليـه يزيد أن يسلكه في الطراز ــ (بيت المال) ــ لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ، وأغنى عن الخلفاء فأبى .

وقيل انه ترك الكوفة الى مكة سنة ١٣٠ وبقي الى جوار بيت الله بضع سنين حتى تولى الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق اقليما ثائرا على ما وصفنا وكانت الكوفة عنوانه ، لا يقتصر شغبها على الخلفاء والأمراء بل يتعداهم الى الولاة والقضاة .

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءته امرأة تخاصم رجلا فأرسلت عينيها فقال له : يا أبا أمية ما أخال هذه البائسة الا مظلومة ! قال يا شعبي ان اخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون !!.

وكان ذلك أيام لم يألف الناس أن يتباكى الظالمون كمـا يتباكون في القرن العشرين ، كضاحك المزن . دمع ولا حزن .

ودخل على الشعبي في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجـة بحجتها وكانت بارعة الجمال فلما فرغت من بيانها التفت القاضي الى المدعى عليـه يسأله وما دفاعك ؟.

فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الأبيات :

فتن الشـــعبي لـــــا رفع الطـــرف اليهـــا
فتنتـــــــه بـــدلال وبخطي حاجبيهـــــا

قال للجلواز قربها وأحضر شاهديها
فقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها

والجلواز فى الفارسية ، هو الحاجب فى العربية أو الشرطى .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان فى دمشق فلما دخل عليه الشعبى ذات يوم ضحك بالرجل ؟ قال : الشعبى لما رفع الطرف اليها ... » وسأل القاضى : ماذا فعلت بالرجل ؟ قال : أوجعته ضربا يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما افترى به على ، قال : أحسنت .

كان المنصور يقول لخاصته : ما أحوجنى الى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى و لايظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، والرابع .. صاحب بريد يكتب الى بخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاة البريد فى الآفاق يكتبون اليه أيام خلافته بسعر القمح وكل مأكول وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وما يرد بيت المال . وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب . ويكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداة . فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الأسعار على حالها أمسك . وان تغير شىء عن حاله كتب الى الوالى والعامل . وان شك فى شىء مما قضى به القاضى كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه .

تغير العراق فى الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد اذ كان مجرد قطر من الأقطار ، ولقد بويع السفاح فى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩م بالانبار ، ثم انتقل الى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤م) فبدا له أن يبنى عاصمة للدولة غير الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل الى موضع بغداد فرسمها بنفسه وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة

ايوان كسرى وينقض القصر الأبيض ليدخل الأنقاض فى بناء بغداد ، ثم كف لكثرة التكاليف وتخير لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصره (الخلد) فى وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشر مليون دينار ، ثم حشر اليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتاها الناس من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيـا . وبلغ سكانها ، نحو المليونين فى عهد حفيـده الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣) ــ (٧٨٦ ــ ٨٠٨) .

هذه المدينة الكاملة التى أنشأها وهى بغداد كان يعوزها ما كمل مجد أسبارطة : اسـم كاسم « ليكرج » وما جمل مجـد أثينا ، مشرع مثـل « صولون » .

كان يعوز رجال بغداد الرجل الذى يضع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة فأشخصه أبو جعفر الى بغداد فشخص اليها .

هنالك دعاه الى ولاة القضاء فى بغداد ، وقيل فى الرصافة التى بناها لولده المهدى . وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده الى جميع كور الاسلام ، أى الى الوظيفة التى أنشئت لأبى يوسف فى عهد الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبى صلى الله عليه وسلم (القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار . قاض عمل بالحق فى قضائه فهو فى الجنة ، وقاض علم الحق فجار متعمدا فذلك فى النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهذا فى النار » كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة والسلام (يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى ثمرة قط) ويعلم حديثه الآخر (ويل للأمراء وويل للعرفاء وويل للأمناء . ليتمنين أقوام يوم القيـامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا) .

وكان يعلم ما يتناقله الرواة عن عثمان بن عفـان اذ نادى عبد الله ابن عمر (اذهب فاقض بين الناس) قال : أو تعافينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما تكره من ذلك ، وقد كان ابوك يقضى ؟ قال : (ان أبى كان يقضى فان أشكل

عليه شيء سأل رسول‌الله صلى‌الله عليه‌وسلم . فان أشكلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سأل جبريل ، وانى لا أجد من أسأله ..)

وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب ابن ضنة للقضـــاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان ابن ضنة ، حكما فى الجاهلية فلمـــا عرف ما دعى له قال (ولله لا ينجينى الله من أمر الجاهلية وما كان فيهـــا من الهلكة ثم أعود فيها بعدأن نجانى الله منها) .

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجيء بالسيف والنطع فلمـــا برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح دارى وقداشتقت الى لقاء ربى ... ولما رأى الأمير اقباله على ربه حرمه من لقياه وأعفاه . ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبى الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضى البصرة اياس ، قال اياس : مرحبا وأهلا بأبى مطرف وأجلسه معه ثم قال له : ما جاء بك ؟ قال : لأشهد لفلان قال : ومالك والشهادة ، انما يشهد الموالى والتجار والسوقة ! قال : (صدقت) وانصرف من مجلسه راضـــيا فقالوا له : انه خدعك . انما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها !!

قال : « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب » .

وهكذا كان القاضى فى عهد عمر بن عبد العزيز نفسه بحاجة الى ذكاء اياس ــ مضرب المثل فى الذكاء ــ ليحتفظ باستقلاله !

كان الشيخ يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وان ما فيه من زكانة وعلو همةليمنعه من التردد وان به لفطانة وسموا عن الهوى تحميان عقله أن يجور .

وما تبعات القضاء شيئا مذكورا اذا قيست الى تبعات الفقهاء ..

لقد كان شريح يقول (أنا أقضى ولا أفتى) فكان قاضيا لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتيا .

ولكل مقام رجال ، فالقاضى يقضى فى قضية بذاتها ، أما الفقه فيشرع القواعد للقضاء وللمتقاضين آجمعين ــ ولهــذا يربو خطأ الفقيه على خطــأ القاضى مرات .

قال سحنون « انا لله . ما أشقى المفتى والحاكم » وقال : « هأنذا يتعلم منى ما تضرب به الرقاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق أماكنت عن هذا غنيا ؟ » ذلك بأن فتوى الفقيه ــ على حد تعبير ابن القيــم ــ شريعة عامة تتعلق بالمستفتى وغيره أما الحاكم (القاضى) فحكمه فردى لا يتعدى الى غير المحكوم له .

انمايقوم المفتى فى الأمة مقام النبى ، وكما قال عليه الصلاة والسلام (ان العلماء ورثة الأنبياء . والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم) .

فليؤد العلماء اذن أماناتهم وليوزعوا فى الناس ما ورثوا من الأنبيــاء وانها لأمانة تنقض الظهور وتؤدد أقوى الأقوياء على القضاء واذا صح قول الشافعى (من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق) فان أبا حنيفة فقير مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .

وانما هى الوظيفة فى خدمة السلطان يقف أمامها متسائلا .

ماذا عن الغد ؟

انما هى عظات الماضى ينشرها بين يديه . والماضى مرآة المستقبل .

ففى مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣) قذف جندى بمصر رجلا من الأهالى فسجنه القاضى وأخرج الوالى الجندى السجين من سجنه فلم يك من القاضى الا أن ترك وظيفته ... ومن قبل ذلك فى مصر أيضا (سنة ٨٩) أقام القاضى ابن شراحبيل الحسنى الحد على كاتب الوالى لشربه الخمر فعطل الوالى قضاءه فاستقال .

وكانت تسيل بالأنبياء أعناق المطى فى الصحراء ، مثلمــا تسيل الآن بالأنباء موجات الهواء واهتزازات الكهرباء ، كما كان يتناقلها أعضاء المؤتمر العام ، الذى ينعقد كل عام ، اذ يلتقى الحجيج فى جوار البيت الحرام .

واستعرض الامام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعا خلت من عمر الدولة العباسية لا يأذنون فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون الا أن تكون كلمتهم هى العليا ... وهو أدرى الناس بما يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجله من ابتلاء ، وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم امام مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة يعجز عنها الكبار من الناس وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجا ... » .

وعقب على ما فات بتلك الآيات التى يبعث بها القرن الثانى الى القضاة فى كل العصور « فاذا جلس الخصمان فسو بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع فى المجلس والاقبال والكلام .. ثم كلمهما برفق وأفهمهما كلامك ولا تعجلهما ، ودعهما حتى يفرغا من جميع ما يريدون الا أن يأخذا فى فضل فتمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك . ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات ورددهم مجالس لعلهم يصلحون » .

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله (من جعل قاضيا فهو كالغريق ، الى متى يسبح وان كان سابحا) .

وراجع نفسه كرة أخرى اذ يقول لتلاميذه فى داره (أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى قد أسرجت لكم الفقه وألجمته ... فسألتكم بالله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم لما صنتموه عن ذل الاستئمار) .

وان منهم من سيرفض القضاء غدا لأبى جعفر كزفر ، وان منهم من سيرفضه بعد غد للرشيد كوكيع .

فلما دعا الرشيد تلميذى أبى حنيفة وكيعا وحفص بن غياث ليليا القضاء أبى وكيع وقبل حفص فخاصم وكيع حفصا حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهرا مكبرا وفى سرعة « الأفلام » وراح يستنبط على طريقته ويقيس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر الى القضاة يلومهم اذا عارض آراءهم أو عارضتها آراء حضاره ، واستوقفه أن يكتب عنهم ولاة البريد كمايكتبون عن العمال واسترجع قوله

عليه الصلاة والسلام (ان قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل قليل) . وقوله (تعلموا ما شئتم فلن يأجركم الله حتى تعملوا ..)

فليبتغ الأجر من الله بالعمل فى سبيل الله . لا فى سبيل الخليفة . واذا كان أبو جعفر يجاهر باعجابه بالحجاج قائلا « ليت لى مثله » !. وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من قتل العلماء والتمثيل بهم حتى ليحرف عن القبلة سعيد بن جبير كى يصلى وتضرب عنقه .

اذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر ، فان أبا حنيفة يتحدى بنفسه الخطر ، فحزم أمره واستخار به فخار له . ورفض ما طلبه اليه أمير المؤمنين . وأصر امام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .

وحلف أبو جعفر ليفعلن . فحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وقال : انى لا أصلح للقضاء . قال الربيع ابن يونس الحاجب : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟. قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى .

فأمر به أبو جعفر الى الحبس فى الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء .

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول : قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى الى الكذب فان كنت كاذبا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ...

وطفق أمير المؤمنين ينازله فى الأمر وهو يقول : اتق الله ولا ترع أمانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك ... وكيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب !

قيل : وداروا به فى الأسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه الى السجن . وقالوا : ان الوزراء نصحوا أبا جعفر باخراجه من

السجن وجعله فى منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل ، فكانت تلك حالته الى أن مات بعد قليل من الزمان ، وقيل بعد أيام معدودات .

وقالوا : انه ضرب مائة سوطا أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطا . حتى سال الدم على عقبيه فقال عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة للخليفة : سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له : لو تصدقت بها . قال : أيوجد عندهم الحلال ... ؟

وهكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسما هو مسماه ، والذى عاش سبعين عاما يصنع الحرية بيده صنعا ويخلقها فى تلاميذه خلقا وفى تعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو صفد .

ان مقاييس هذا العالم وقيوده للناس وللولاةولكنها ليستللعباقرة .

تلك كانت القضية الأخيرة التى سمع فيها قول أبى حنيفة نقل التاريخ الينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلا كذابا ان صح قول الخليفة فاذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى :

كيف يتولى القضاء رجل يقذفه أمير المؤمنين .

وكيف تسخر الدولة العلماء . وكيف يخدم الأئمة الخلفاء ؟

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التى حمل فيها كرامة العلماء فى عصره وكرامة الرأى الانسانى فى الأعصر كافة ، وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات الحاشية . وما أفتك الطعنة اذا أصابت الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء ..!

ولئن كان فى كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب ، انها ليسيطر عليهـا القلق والعذاب والاسترهاب .

قالوا : دخل شريك يوما على المهدى فقال له المهدى : لا بد أن تجيبنى الى خصلة من ثلاث : أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل عندى أكلة . ففكر ساعة ثم قال : الأكلة أخفها على نفسى . قال الفضل بن الربيع « فحدثهم والله . وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .

لله در أبى حنيفة فيما قال لأبى يوسف عن السلطان اذ تفرس فيـه أنه سيلى القضاء .. (فكن منه كما أنت من النار تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فانك تحترق وتتأذى منها ، فان السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه ...)

وما رمى أبى جعفـر لأبى حنيفة بالكذب الا الخطوة الأولى . وقـد خطاها ، فماذا كان يخفى له الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر ...!

لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر . وان التاريخ ليعرف أبا جعفر ويعرف أبا حنيفة ، ويشهد أن الذى صدق هو الامام وأن الذى كذب هو الخليفة ..!

ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عاليا ، ورفع صوته جهوريا مدويا ــ فلن يلقى أعلام الحرية تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر النـاس بأن يقول للمنصور ، ما قاله الزهرى من قبل لهشام بن عبد الملك : والله لو نادانى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجر فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح ، ما قدر مع الرشيد لأبى يوسـف . فلئن استطاع أبو يوسف أن يجمـع بين الدين والدنيا وتعظيم السلطان ، لقد كلفه ذلك كثيرا من عبقرياته !

وكم كان من الفروق بين العهدين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع قرن .

لكن لأبى جعفر من الحق على التاريخ أن يز نرأيه التاريخ ، فلقد أهمته وظيفة القضاء ، على ما أسلفنا من المقال وما كان أعظم حاجـة البلدة التى

تحمل اسمه (بغداد ـ مدينة المنصور) الى أبى حنيفة فى حين لم يكن بأبى حنيفة حاجة الى تلك البلدة أو الى الرجل الذى تحمل اسمه ، وفى عصر قال فيه ابن المقفع « الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك » وفى عهد كان يستباح فيه من أجل الدولة مالا يباح .

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذى لا يزول . وفى سيرته من التدلى والسمو مالا مشابه له الا فى سير أفذاذ الساسة والمؤسسين . كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوى أشياؤه وتنبسط ، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تستمر فى تحليقها السماوى فتربطها بطبائع الغاب . والظفر والناب .

فى هذا الرجل عدالة عمرية وفيه خيانات دونها الكثير من الخيانات .!

اختلف مع زوجته (أروى) أم المهدى ، فجعل لها أن تختار قاضيا فى خصومتها واختارت قاضى مصر غوث بن سليمان فحمل القاضى الى العراق ووكلت خادما لها ليخاصم الخليفة فى مجلس القضاء فقال غوث لأبى جعفر (ان رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم فى مجلسه) فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها فى كتاب الصداق وقضى القاضى ضده .

وكتب الى سوار بن عبد الله قاضى البصرة أن ينظر فى أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة . وكانت الأرض فى يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها الى القائد . فأبى القاضى فكتب اليه (والله الذى لا اله الا هو لتدفعنها الى القائد) فكتب اليه سوار (والله الذى لا اله الا هو لا أخرجها من يده الا بحق) واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصياح الفرح فقال « ملأتها عدلا . وصارت قضاتى تردنى الى الحق . » وكانت آية اعجابه بحكم غوث بن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بغربته فرده الى ضفاف النيل .

واستقضى الليث بن سعد امام مصر بل قيل انه عرض عليه ولايتها فأبى .

واستقضى يحيى بن سعيد الأنصارى اذ استقدمه من المدينة الى الهاشمية .

واستقضى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها مخبأ !...

فهدم الوالى عليه بعض داره واطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ فى صحن الدار فناجاه « ألا تخرج الى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله ! » فرفع رأسه وقال : « الى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟ »

وسمع الناس ابن وهب يقول : يارب يغدو عليك اخوانى غدا علماء حكماء فقهاء وأقدم عليك قاضيا ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض ...! »

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله ليحملوا معه تبعات الحكم .

كان أبو جعفر بناء مثاليا من بناة الدول وافدا من الميدان — والسنة فى الميدان سنتان — فيه عزمات الفتوة والتفاتات المحنك فأخذت يسراه تبطش بخصوم الدولة وانطلقت يمناه فى بسط وايناس تحمل ميزان المعدلة فى الناس ...

كان سخاؤه من أجل الدولة مضرب المثل ومن أجلها أيضا كان شحه مضرب الأمثال ، حتى ليسمى بالدوانيقى أو (أبى الدوانيق) والدانق $\frac{1}{6}$ درهم .

طلب اليه سوار (القاضى) أن يسوى أجر كاتبين لسوار — مرتب أحدهما أربعون درهما ومرتب الآخر عشرون — فكتب أبو جعفر اليه أن ينقص ذا الأربعين عشرة ، وأن يزيد ذا العشرين عشرة ! وانما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين !!

ولما علم أن ابنه المهدى وهب عشرين الف درهم لشاعر ، استرجع من الشاعر ستة عشر ألفا !!

وقال له : ان المهدى غر خدعته ولا يعرف قيمة المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بنى العباس مليون درهم ليجعل له دارا ومكانا ...

وبينما يصيح بأنه ملأ الأرض عدالة ، ويجمع حوله التواقين الى العلم وعشاق الحكمة ، اذا بنفسه تسول له أن ينقض العهد الذى عاهد عليه يزيد بن هبيرة بعد مفاوضات ظل الشهود يختلفون فيها أربعين يوما ، فلما انصرف يزيد من مجلسه قال أبو جعفر : عجبا ممن يأمرنى بقتل مثل هذا ... !

لكن القائل أبو جعفر . فلا عجب اذا كان القاتل أبا جعفر ... لقد قتله وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (فى العهود وفاء لا غدر) !

ودعا الى قصره أبا مسلم الخراسانى الذى أخرجه وأخاه من مخبئهما فى الكوفة من بضع سنين ليمنحه ويمنح أخاه من قبله دولة تبقى الى سنة ٦٥٥هـ فى بغداد ، وخلافة تبقى الى سنة ٩٢٣ بمصر ، دعاه الى قصره مبيتا له بليل ، حتى اذا كان بين يديه وثب به عبيده فقتلوه .

ولما هزم عمه عبد الله بن على قائد الجيوش العباسية المظفرة احتمى عبد الله بأخيه سليمان بن على بالبصرة فأعطاه المنصور أمانا حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره .

فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع مخازى أماناته فكتب اليه (أما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد اللهمن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ والسلام ...)

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . قال : لأن بنى مروان لم تبل رممهم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ، فليس يتمهد هيبتنا فى نفوسهم الا بنسيان العفو واستعمال العقوبة .

فهى السياسة اذن تدفعه الى البطش وتعميه عن المغفرة ، والغدر عنده مصلحة عليا والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يختان ويغدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بعهده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . ولما هم بالزواج من سواها حجته بعهده فكان يكتب للفقيه ، بالحجاز والعراق يطلب فى كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ! وفيما

بينه وبين الله صاحب عهد ! أما فى السياسة فعهده للدولة يدور وجهــه مع صالحها حيث كان ، فاذا أمن الأذى عليها تراءى لك البشر الذى يستقبل به القضاء ضده ، والنصح العنيف له ...

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه (كلكم يمشى رويد . كلكم طالب صيد . غير عمــرو بن عبيد) وكان عمرو شيخا جريئا يطلق لسانه فى الملوك وفى الصحابة ! قال لأبى جعفر يوما « ان الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . وذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده ...) فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس : يا عمــرو غممت أمير المؤمنين . قال عمــرو للخليفة « ان هذا وأشــار الى الربيع ــ صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وارء بابك بشىء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر : فمــا أصنع ؟ قلت لك خاتمى فى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفنى قال عمرو : لا . أدعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة أردد منها شيئا نعلم أنك صادق ...

ودخل عليه سفيان الثورى فأغلظ له القول . فسأله أبو جعفر فأجاب ثم قال : فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير اذنهم . وقد قال عمر فى حجة حجها وقد أنفق ستة عشر دينارا هو ومن معه . « ما أرانا الا وقــد أجحفنا ببيت المال » وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه فى المجلس عن ابراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود (سلسلة الكوفة) أن رسول الله قال « رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار عدا . » فقال له أبوعبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟ . فقال له سفيان « أسكت فانما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرنى بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحدا أحق بالقتل منه . فقال أبو جعفر « اسكت يا أنوك (أحمق) فو الله ما بقى على الأرض أحــد اليوم يستحى منه غير هذا ومالك بن أنس » .

كانت حالة أحكام عرفية فى دولة لم تكد تستقر بعد ، يحشد لها القوى من كل حدب وصوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أبا حنيفة ولم يطع ، فهى عنده

الثورة ، وحلف عليه فلم يطع فهمـا ثورتان . بل انه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الخليفة فهى عنده ثورات .

لقد كان يخطب فى نفس العام الذى دعى فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول : انما أنا سلطان الله فى الأرض .! لقد كان السلطان الذى فى يده أضعاف ما كان بيد الملك الذى قال بعد قرون : « أنا الدولة » ونعنى به لويس الرابع عشر . وكانت خطبة ملأى بدعوى الحـق الالهى فى الخـلافة . كان يطربه ويطرب بنى العباس أن يقال للرجل منهم : ابن عمك رسول الله !! حريصين على أن يكون ملكهم قائما على رضـا الشعب لا يقبلون أن يراجع كلمتهم أحد ، وأشدهم فى هـذا أبو جعفر حتى حنى له بنو هاشـم أنفسهم هامهم العوالى ..

قال مالك « دخلت على أبى جعفر ورأيت غير واحد من بنى هاشـم يقبل يده المرتين والثلاث ! ورزقنى الله العافية من ذلك فلم أقبل له يدا ! »

ومن أجل ذلك تراه اذ قيل انه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها ، يرجو ألا يذيع فى الناس أنباء العطاء والاباء ، ففى الرفض ثورة أو اسـتعلاء وهو وهو لا يقبل الثورة ولا يطيق الاستعلاء ، فكيف يعرض عليه القضاء فيقف فى وجهه مرة اثر مرة يقول : لا ...

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبى حنيفة أن يأبى وأن يصر على الاباء .

فالدولة التى لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح »كما يقول المثل اللاتينى ، ويضرب فيها القضاة هى أخرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . و (ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) . كما قال عليه الصلاة والسلام .

رفض أبو حنيفة القضـاء بين يدى أبى جعفر وبين يدى ابن هبيـرة وضرب بالسياط ، وكانت أمه الى جواره تقول : يا نعمان ان علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فأجابها « يا أمه لو أردت الدنيا

لوصلت اليها ولكنى أردت آن يعلم الله أنى صنت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث الى ولـده حماد يقول : قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من سـويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) . وقد حبسته عنى فعجله .

ومكث فى السجن أياما معدودات ثم صعدت روحه الى بارئها .

وهكذا تعدى أبو جعفر الالحاح الى الاكراه ، وتعدى الاكراه النفسانى باليمين ، الى الاكراه الجثمـانى بالسجن وتعـدى ذلك كله الى التعذيب والضرب . فأى جناية تلك يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ ... ومهما قيل عن نبالة الغاية فانها لا ترخص عنه الوصمة والمذمة . فاذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى أو الجثمـانى قـد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فيا هول ما يلقى به ربه أبو جعفر ... !

* * *

كان التجنيد للقضاء نهجا نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده ، وقديما كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل الى الشـام (ان خروجه قد أخل المدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به) ولقد كلم أبا بكر فى أن يحبسه لحاجة الناس اليه فأبى ذلك عليه ...

لكن عمر لم يفكر فى سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أبا حنيفة ، وانما تداول الفاروق مع الصديق فى ابقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة فى الأمصـار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينـة (محتاجون اليه فيما يجدونه وفيما يحدث لهم فيما لا يجدونه عند غيره) . والفرق بين الخليفتين كالفرق بين التوفيق والاندفاع . بين رجل الله ورجل الملك ، وبين خليفة الصديق وخليفة السفاح .

وعرض المأمون القضاء على تلميذ أبى يوسف ، معلى بن منصور غير مرة فأبى وعرض قضـاء بغـداد على تلميـذ محمـد ، موسى بن سليمان

الجوزجانى ، فامتنع فأجله سبعا وهدده ان لم يقبل ليعذبنه وليحبسنه فقال له « يا أمير المؤمنين : قد صح عندى أنك اذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مزاحم حيث كنت بمرو فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحدا على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهنى » . فجعل المأمون يقول : أخوين صالحين بمرو. فتفكر ساعة ثم قال للجوزجانى . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع ، فرجاه فى أن يولى أخاه بدلا منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم ، فاستعفاه ابن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء فى الوسط العلمى على أنها ابتلاء يفزع منه العلماء ، فزع الأصحاء ، من الوباء ! كما جرت على الألسن العبارات التقليدية « أبتلى القضاء . وامتحن بالقضاء » . حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختاره الوالى لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر وبلغ الخبر أباه فى فلسطين فقال : انا لله وانا اليه راجعون ! هلك الرجل .!

وهذا قاضيان ووال يتداولون فى شأن القضاء على أنه (شفير جهنم) !

كتب عمر بن عبد العزيز الى واليه ليجمع بين اياس بن معاوية والقاسم ابن ربيعة فيولى القضاء أنفذهما . فلما اجتمعا قال اياس للوالى : أيها الرجل : سل عنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين . — وكان لا يجلس اليهما وكان القاسم يفعل ذلك — فعلم القاسم أنهما ان سئلا أشارا اليه فقال : لا تسأل عنى ولا عنه . فوالله الذى لا اله الا هو ان اياسا أفقه منى وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذبا فما ينبغى أن توليني . وان كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى . قال اياس للوالى : انك جئت برجلى فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف فقال الوالى « أما اذا فهمتها فأنت لها .. » واستقضاه ..

وهذان مذهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريج فعتب عليه ابن خيزان

بقوله : « هذا الأمر لم يكن فى أصحابنا .. وانما كان بلية فى أصحاب أبى حنيفة » .

بل انه ليس بلية فحسب . ولا شفير جهنم فحسب ولكنه (ذبح بغير سكين) .

ولى سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال لها « اليوم ذبح أبوك بغير سكين » . فعلم الناس قبوله القضاء .

ولئن عجبت لاعتبار ولاية القضاء ذبحا بغير سكين ، ان العجب ليوفى على الغاية من فهم السامع للمراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكين ، من تلاميذ سحنون ، يتولى القضاء اذ تكاد السيوف تسلمه للحتوف ..

جلس ابراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين فسأله :

ما تقول فى رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة ، فامتنع ؟ قال : يلزمه أن يلى .. قال الأمير : تمنع . قال : تجبره على ذلك بجلد . قال الأمير الداهية « قم فأنت هو » ! قال : ما أنا بالذى وصفت وتمنع ! ! فأخذ الأمير بمجامع ثيابه وأدنى السيف من نحره ، فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على المغيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك ــ وكانت جائزته أربعة آلاف دينار ــ قال « والله يا أمير المؤمنين لأن يختنقنى السلطان أحب الى من القضاء » .. فقال الخليفة السمح : ما بعد هذا شيء وأجازه بألفى دينار .

وكذلك الذى يؤثر أن يختنقه السلطان ، هذا الذى قيل انه يؤثر أن يدعو الله على نفسه فيقبضه الله اليه .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلى القضاء فامتنع فأراد أبوه أن

يكرهه عليه فسأله أن يمهله ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فمات فى الأيام الثلاثة ! فكانوا يرون أنه دعا على نفسه .

ودعى ابن خيزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج الى الماء فلم يقدر عليه الا بمناولة الجيران من الكوة ! فقال الوزير الذى حبسه « ما أردنا بالشيخ أبى على الا خيرا أردنا أن يعلم الناس أن فى مملكتنا رجلا يعرض عليه القضاء شرقا وغربا وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل » .

وعرضت الجوائز على الامام الطبرى فرفض ، وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض وأشار عليه صحبه قائلين : لك فى هذا ثواب وتحيى سنة قد درست فنهرهم قائلا « كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك نهيتمونى عنه » .

ولما أبطأت عليه النفقة من مدينة آمل حيث كان أبوه ينفذ اليه الشىء ، بعد الشىء ، آثر أن يفتق كمى قميصه فيبيعهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز أبادى على أن يتقلد له النظر فى الأحكام والمظالم شرقا وغربا فامتنع ، فوكل به ، فكتب اليه « ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكنى معك » فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء ، انما أردنا أن يقال انه كان فى عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع وقد أعفيناه .

صنع العلماء ذلك — وأمثاله كثيرة فى التاريخ الاسلامى — خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السلطان ويطغى ، بل بلغ التحرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل اذا خرج لقدوم الأمير استمساكا بحرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء .

***

هؤلاء العلماء الأفذاذ قد نشأتهم آثار الفضل التى خلفها لهم سلف صالح فى قمة أسمائه أبو حنيفة النعمان ، يحملون آثارهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رؤوسهم على أكفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة

فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمستبد الذى لا يغفر أن تعصى رغبته ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد والعلماء والأئمة ! ..

فلم يكن عدلا لهذا الجبروت الا ذلك الاستعلاء .. ولا كفئا لهذا الطاغية العظيم الا ذلك الامام الأعظم .

وبهذا كان الدرس رائعا ونافعا العلماء : ولأئمة العلماء كلما ذكره ابن حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد ما ذاق ابن حنبل من ارهاق فى محنة خلق القرآن .

هنالك وضع نفسه رابع الأئمة حيث وضع نفسه أول الأئمة .

لم يقبل ابن حنبل أن يقول ان القرآن مخلوق .. ودعا نائب المأمون اليه العلماء كما طلب المأمون يسألهم فوروا ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال : هو كلام الله لا أزيد على هذا .. فوجه به الى المأمون بطرسوس ثم الى الرقة ، وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فرد ابن حنبل الى بغداد مصفدا . ومكث فى حبسه ثمانية وعشرين شهرا وفى رجليه أربعة أصفاد .. وأخيرا حمل الى المعتصم والى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر فى فتنة خلق القرآن أحمد بن أبى داؤد وطائفة من العلماء ليناظروه أياما ثلاثة ، فلما كان اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعتصم يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم اليه يقول : انى والله عليك لشفيق .. ونخس ابن حنبل ناخس بالسيف، وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم .. !

وقال قائل يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون : يا أمير المؤمنين أنت صائم . وأنت فى الشمس قائم !

كانوا يخشون صيامه وقيامه ، ويخافون الشمس ، ولا يخافون جهنم التى يوعدون !

ثم قال المعتصم : ويحك يا أحمد ما تقول ! وعاد يقول للجلاد : أوجع

قطع الله يدك ! فجعلوا يوجعون . وعاد يقول : أجبنى . ويقول للجلادين : أوجعوا .. حتى فقد ابن حنبل وعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فكت ، وقال له أحد الحاضرين : انا كببناك على وجهك . وطرحناك على ظهرك ودسناك .. وجيء به والدم ينزف منه ، وكان صائما وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة فى الظهر والدم يسيل منه : قالوا : كيف تصلى كذلك . قال « صلى عمر وجرحه يثعب دما » .

تعلم ابن حنبل على أبى حنيفة ، وتعلم آخرون على ابن حنبل ، كزميله البويطى اذ حمل من مصر الى بغداد ليقول مثل ما دعى لقوله ابن حنبل فأبى ومات فى أصفاده ، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الاسلام فى كل مقام .

سمع عز الدين موسك من أمراء دولة بنى أيوب بمصر عن الامام القاسم الشاطبى امام القراءات فدعاه ليمثل أمامه . فبرم الشاطبى بالدعوة وبعث اليه برقعة فيها :

قـــل للأمـــير نصـــيحة   لا تركنـــن الى فقيـــــه
ان الفقيـــــه اذا أتى   أبوابـــكم لا خـــير فيـــه

ترى هل يذكـر الذاكرون اسم الشـاطبى وهم يسلكون (شـارع الموسكى) الى أقدم جامعة فى العالم ! نعنى الجامع الأزهر . ! لكأنما : خطت يد التاريخ من ذلك الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وان أطلقت عليه اسم الأمير .

وفى عهد الأيوبيين أيضا ولى السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ الاسلام أبا محمد العز بن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم مماليك وتضاف أثمانهم الى بيت المـال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حمته منهم رعاية السماء وحمتهم منه عناية السلطان ، فاشتراهم السلطان بماله ودفع اليه الثمن ليصرفه فى وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضى الحنفى

فيجيء الى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه الا اذا جاء الى جنبه ، فلما طالبه بلعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون انما قصدك بهذا القول : فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى أجازه بها فأخذها كما هى بخواتمها وسجنه فى دار اكتريت له . فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس باذن التمسوه من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علته التى مات فيها وجه اليه يستحله ، فقال للرسول : قل له أنا شيخ كبير وأنت عليل والملتقى قريب والله الحاجز بيننا .

ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار فى سجنه اجتمع آخرون ليملى عليهم السرخسى من حبسه فى جب السجن فى أوزجند اذ نصح الخاقان فأسخطه فحبسه .

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ الحنفية ببغداد عبد الله بن الحسين الكرخى ، كتب أصحابه الى سيف الدولة فى حلب ليعينه . وبكى الشيخ اذ علم ودعا الله قائلا : اللهم لا تجعل رزقى الا من حيث عودتنى .

واستجاب اليه ربه فمات قبل أن تصل اليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان على بن الحسن النيسابورى : لم لا تجيء عندى ؟ فقال « أردت أن تكون خير الملوك اذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الخيالى وأخبره الصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين « ان أعطيتنى وزارتك وأعطانى السلطان سلطنته لا أترك هذا السفر » ! .

الخاتمة

في التاريخ

« سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريقي لأموت ، وأنتم في طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أي الفريقين أهدى سبيلا »

(سقراط)

لم تكن حياة أبى حنيفة وان طالت الا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الانسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها غاية ولا وسيلة الا الحرية والتسامح ، فى كل أطوارها .

والعالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ، والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل الى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى .

وبعد أن ذاعت نظريات أبى حنيفة فى الايمان وفى الحرية وفى الاجتهاد بالرأى استقل بامامة ثلثى الأمة عن سائر المذاهب والأفراق ورقى سلم المجد الى أسمى ذرواته ، لينزل فى التاريخ منزلة الامام الأعظم لأهل الاسلام .

ولما ختم حياته فى سبيل الحرية كان كالذى كشف الغيب فوضع نفسه ، حيث وضعته الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه عنوانه ..

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسى هو تشيعه لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على أبى طالب) المسمى بالنفس الزكية أو لأخيه ابراهيم ؟ أم أنه لم يحبس الا من أجل القضاء .. ؟

ان من المسلم أن محمدا وأخاه ابراهيم قتلا فى سنة ١٤٥ حين خرج محمد بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه ابراهيم فى البصرة .

واذا كان من المسلم به أن الأجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠ فانه يكون عجيبا أن يتشيع أبو حنيفة للموتى بعد اذ ماتوا بخمس سنين • وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس ، قوى المراس ، كأبى جعفر ، من العطف على ذكريات الموتى ، لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاما !

لقد كان أبو حنيفة اذا سئل عن على ومعاوية وقتلى صفين أو خلافات الشيعة والأمويين يقول « أخاف الله أن أقدم على شىء يسألنى الله عنه .. واذا أقامنى يوم القيامة بين يديه لا يسألنى عن شىء من أمورهم يسألنى عما كلفنى والاشتغال بذلك أولى » .

وكان المنصور من الناحية الأخرى واسع الصدر بعيد النظر فى آراء خصومه . وأشياع خصومه سمع أن عمرو بن عبيـــد زعيم المعتزلة كاتب محمد بن عبد الله فسأله فيما سمع . فقال له عمـــرو : انه يعرف رأيه فى السيف — وهو أنه لا يرى الاستعانة بالقوة لتأييد أغراضه — فطلب اليه المنصور أن يحلف فقال (لئن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية) فارتضى منه ذلك .. وقنع من زعيم المعتزلة بما كان حريا أن يقنع به من زعيم الفقهاء لو ثبت شىء ضده . أو قامت الشبهة فيه عنده .

ولئن قال نابوليون فى أعقاب (مسكوفا) « لا عدو بعد النصر » أو أمر مملوكه رستم بسقيا الجريح الروسى من الزاد الامبراطورى،فان المنصور كان يصنع صنيعه فى بعض من استيقن تشيعهم لمحمد وابراهيم .

وكان المفضل الضبى (صاحب المفضليات) من أنصار ابراهيم اذ خرج على المنصور . فلما أظفره الله بابراهيم ، وأمكنه من المفضل ، عفا المنصور عما سلف واستخلصه لنفسه وقربه نجيا ، فصار نجما فى البلاط ، وألقى اليه ولده المهدى يؤدبه ويرعاه .

وكان المنصور فتى جلدا لا تروعه مدلهمات الخطوب . يخرج عند الثورة على دابة يحارب الجموع وحده . فكيف ينقم على المقهورين أو على الموتى بعد اذ ماتوا وتصرمت على وفاتهم السنون ، وبعـــد أن مكن لدولته فبنى مدينته . وملأ خزائنه بالمال ودواوينه بالرجال .

ولم يتم بنيان بغداد الا فى سنة ١٤٩ وان كان المنصور قد انتقل اليها سنة ١٤٦ . بل قيـــل انه كلف أبا حنيفة بعد مافى سورها من آجر وضربوا مثلا على ذكاء أبى حنيفة ابتكاره طريقة الحساب بعد مافى الذراع من لبنات ومقاس ما فى السور من أذرع .

وقيل ان شقاقا شجر بين المنصور واحدى حليلاته فطلبت العدل بينها وبين سائرهن . فسألها المنصور عمن ترضى للحكومة فى هـــذه الخصومة . قالت بأبى حنيفة فأحضر . وجلست تلك من وراء الستر قال : فليتـــكلم أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : انها تخاصمنى ، كم يحل للرجـــل أن يتزوج من

النســاء ليجمع بينهن ؟ قال أبو حنيفة : أربع . قال أبو جعفر : وكم يحل من الاماء ؟ قال : ما شاء ليس له من عدد .. قال أبو جعفر : اسمعى يا هذه . قالت : قد سمعت . فانطلق امام أهل الرأى يقول : « يا أمير المؤمنين . أحل الله لأهل العدل . فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل فينبغى ألا يجاوز الواحدة . قال الله تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فينبغى أن تتأدب بأدب الله فتتعظ بمواعظه .. » وسكت أمير المؤمنين وطال سكوته ، وخرج أبو حنيفة . فلما بلغ منزله جاءه غلام بهدية من السيدة التى أدب من أجلها أمير المؤمنين ذلك الأدب : خمسين ألفا ، وجارية ، ودابة .

فقال للغلام « أقرئها سلامى وقل لها انما ناضلت عن دينى » وما مد يده الى شىء حتى حمل من بين يديه .

دخل على أبى جعفر يوما والى جوار أبى جعفر الربيع بن يونس . وفى رواية أخرى محمد بن اسحق صاحب المغازى . وكان الربيع ينفس على أبى حنيفة مكانته ، فابتدره بقوله : يا أمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جدك فى الاستثناء المنفصل (فلقد كان جده عبد الله بن عباس يقول : اذا حلف الحالف ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين الى سنة فى قول ، وأبدا فى قول آخر ، جاز الاستثناء من اليمين ، فى حين يرى أبو حنيفة أن الاستثناء لا يجوز الا متصلا باليمين ، والاستثناء عنده لا يصح اذا صدر القول باتا فى المجلس) .

فلم يحزن أبا حنيفة قوله ، بل واجه العاصفة بالأعصار وقذف فى وجه الربيع بآية من آياته . قال : يا أمير المؤمنين « ان الربيع يزعم انه ليس لك فى رقاب جندك بيعة ! قال أبو جعفر : وكيف ؟ قال أبو حنيفة : « يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم ! ! » وبهت الذى أثار الثائرة لأن أبا جعفر كان يلتمس البيعة من كل الأقطار .

وضحك أبو جعفر وقال : يا ربيع لا تتعرض لأبى حنيفة .

بلى . ولو أبيح الاستثناء المنفصل لم تكد تقع يمين . اذ كان الناس يستثنون بدلا من الكفارات ويستثنون حتى لا تطلق نساؤهم .

فى تلك المقابلة أو فى نظائرها دخل أبو حنيفة على أبى جعفر : فوجد أبا العباس الطوسى — وكان سىء الرأى فيه — فقال لمن حوله فى صوت خفيض (اليوم أقتل أبا حنيفة) . وأقبل عليه يقول : يا أبا حنيفة ، ان أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل . لا يدرى ما هو أيسعه أن يضرب عنقه ؟ فأجابه الشيخ باحدى روائع القياس . قال : « أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل » ؟ قال الطوسى : بالحق . قال : « انفذ بالحق حيث كان ولا تسأل عنه » والتفت الى من قرب منه وقال (أراد أن يوثقنى فربطته) .

وأى رباط ! لقد وضع له الجواب من سؤاله . والسؤال عن وجه الحق لا يصدر الا من رجل لا يعرف أن الخليفة يأمر بالحق أم بالباطل . وبهذا سلم المسئول وانكشف السائل .

هذه الأنباء وأمثالها تدلنا على أن أبا حنيفة كان يدخل على المنصور بالهاشمية أو بمدينة السلام ، اماما رفيع المقام ، مسموع الكلام . قبل أن يدخلها فى طريقه الى السجن . وتدل على أن غضب الخليفة كان غضب الفجاءة لأسباب جاءت كذلك فجاءة .

وفى الحق أن مدينة المنصور كانت كل شىء للمنصور . وكان أبو حنيفة فى أخريات أيامه يحمل على مفرقه عدة من التيجان . فكيف تخلو المدينة الخالدة من الرجل الذى كتب له الخلود .

كيف لا تزدهى به مثلما تزدهى به الكوفة . وكيف تمتنع هذه التيجان التى تكلل هامة الامام الأعظم عن أن تنتظم فى جواهر التاج الأكبر ! لقد كان عليه أن يقبل القضاء فى بغداد وأن يحنى رأسه للخليفة والا فان الرفض ذنب عند أبى جعفر لا يغفر .

كان أبو جعفر يحس احساس (تيزيه) اذ بنى أثينا ، واحساس رومولوس اذ شاد روما . والذى يشيد مدينة يعشقها فيهواها كهوى الغانيات بل أشد . لأنه يخلد فيها نفسه وأولاده ومفاخره وآراءه وحضارة جيله ، وفى

سبيل هذا التخليد هانت على البنائين كل التضحيات فهم لا ينشئون مدائن فحسب وانما ينشئون مدنيات ودنى كاملة ، أين منها الصروح الممردة والآثار .

ولقد كلف أبو جعفر بالبناء حتى ليعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد للدنيا وأحاطها بالقطائع وبنى الرصافة لولده المهدى وبنى الكرخ ، وكلف المهدى ببناء الرافقة بل ان أبا جعفر هو الذى بنى الدولة العباسية نفسها .

وانتقلت نزعة البناء الى الوزراء . قال يحيى بن خالد لولديه الفضل وجعفر « لا شيء أبقى ذكرا من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا » فاتخذ كل منهما لنفسه قصرا ، وقيل ان جعفر — فى عهد الرشيد — أنفق على قصره عشرين مليون درهم غير الأثاث .. !

ومنذ ألفى عام قبل المنصور تنازل « تيزيه » عن ملكه لينشىء « أثينا » ومنذ ثلاثة عشر قرنا قبله كان « رومولوس » لا يقتل الأعداء ولا يسبى النساء وانما يأمرهم بهدم قراهم ودساكرهم وأن يقدموا لتعمير « روما » . وكان « تيزيه » أول من تنازل عن الملك لخير الشعب كما قال سقراط . وصار « رومولوس » فيما بعد الها يخر له الرومان سجدا الى الأذقان .

وكان سلطان أبى جعفر أعظم من سلطان تيزيه ورومولوس معا . فيجب أن يعمر بغداد وفق ما يهوى والويل لمن يقف فى الطريق .

فحبس أبى حنيفة انما كان فى سبيل أن يتولى لأبى جعفر قضاء بغداد وأن يصدع بما يؤمر ولا يرد على الذهن أن يكون ذلك السبب اختراعا .
لأن بغداد كانت قد تم بناؤها . ولأن من السائغ أن يرى أبو جعفر أن الولاية على قضائها لم تك تصلح الا له . وليس تشييد مدينة السلام بحادث عادى انما هو الحادث الأعظم بدعوة الامام الأعظم وخليق لدى المستبد المطلق السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب فى نفس الزمان ونفس المكان .

ولو كان الغضب من أجل محمد وابراهيم لأحدث فى أبى حنيفة آثاره أيام أحدث فيهما آثاره . فلم يكن الامام الأعظم نكرة فينسى خمس سنوات أو عشر سنوات بعد أن نكل المنصور بالأخوين الشهيدين وبأبيهما وبأهليهما.

لقد بدأ المنصور البحث عن محمد وابراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما حج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لمقرهما فحبسه وصادر أمواله ، فكيف ينام عن أبى حنيفة كل ذلك الزمان وليس من طبيعة أبى جعفر أن ينام .

كان مالك فى أوج مجده العلمى والدينى فى جوار النبى ، اذ قيل انه أفتى بأن بيعة الناس للمنصور كانت مكرهة أى غير ملزمة للناس ممالأة منه لمحمد بن عبد الله عند خروجه ، أو قيل انه سئل عن البغاة ، أيجوز قتالهم ! فقال « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز » فقيل فان لم يكن مثله ؟ فأجاب « دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبى جعفر على المدينة وبين جلد مالك .

ولئن راجع أبو جعفر واليه فيما صنع لقد كان ذلك خوفا من الله لا خوفا من الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مكن للدولة فلم يكن يخاف ولم يكن يخفى . والذى يخفى هو الذى يخاف ، كالذى يخاف هو الذى يخفى .

فلو أخذ المنصور على أبى حنيفة مأخذا لناقشه الحساب من فوره جهرة مثلما أخذ محمدا وابراهيم جهرة . وحبس أباهما فى وضح النهار .

ولم يك أبو جعفر ليأمن جانب الكوفة . فيذر الامام الأعظم فى مسجدها خمس سنوات طويلات يسكب فى دروسه السخط المدمر — لو صح ما يقولون — وأبو جعفر أعلم الناس بمبلغ ما أحدثته الدعاية على يديه ويدى أخويه أبى العباس وابراهيم الامام وأشياعهم فى الكوفة نفسها وفى خراسان وفى سائر البقاع .

واذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعترض على أستاذه لخوضه فى ذكر محمد أو ابراهيم فان ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت المقارنة التاريخية للملابسات التى ألممنا بها فى ايجاز .

وأبو حنيفة هو الامام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فذات فقه خاص وأحاديث ومعتقدات خاصة ، تضمنتها مؤلفات ضخمة دون منها الكثير زيد بن

علي وجعفر الصادق وغيرهما . ولم يعـرف عن أبى حنيفة أنه روج لفقه الشيعة ، بل لم ينعكس على مرآته الصافية آثار فكر شيعى .

ولئـن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبى ان أفئـدة الأمة جمعاء تهوى اليهم ، لقد كان « صاحب الأغانى » حفيدا لمروان آخر خلفاء بنى أمية . ومع ذلك كان شيعيا .. !

وليس معقولا أن يكون أبو حنيفة شيعيا بفعله أو قوله أو بهواه ، دون أن ينكشف الخبىء من أمره ، أو ينعكس أثـره على عمله ، فى معاركه الخالدة مع الخوارج ومع المحدثين ومع الولاة ومع الخليفة وسواهم .

ولما خاصم ابن هبيرة كان خصامهما حريا بأن يكشف أستار غيبه . بل ان بنى العباس كانوا مع الشيعة حتى بويع لأبى العباس فى سنة ١٣٢ فهم العليمون حقا بأشياع الخلفاء .

فكيف يكون من هؤلاء ، ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه شيئا مما أخذاه على زعماء أهل البيت فى بضعة عشر ربيعا كانت كلها النكال للشيعة .

واذا صح ما روى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته فان المنصور لا يصلى على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبنى أمية كما رفضه لبنى العباس . ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هواه مع الدولة المقبلة من الشرق من بلاد أجداده ، وبخاصة وقد ناله من أذى العهد المنصرم ما كان قمينا بأن يصل أسـبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعـه راجعا الى الهوى ، أو الى الأذى ، أو الى النظام .

***

انما عافت نفس أبى حنيفة القضاء لأبى جعفر لأنه ليس القاضى المحسوب على الحكام والحاشية . وليس هذا القاضى الا ألعبانا يعرض على النظارة فنونا من الظلم على أنها العدل ، وما هى فى الحق الا نتاج العبودية والمهـانة والابتذال .

والقضاء المسخر كالفكر المشترى والقلم الأجير أتعس ما فى الأسواق من سلع وعروض .

والرأى هو العرض : يبيع عرضه من يبيع رأيه . ذاك لشهوات الحس واللمس وهذا لشهوات الفكر والنفس . بل ان من يبيع رأيه يبيع جسده . فما الصمت أو البيان ، أو اللسان أو البنان ، الا أجزاء من جسم الانسان .

فى بيوع الفكر يغطى المتبايعان عقود الاسترقاق بشتى مظاهر الاستقلال والاحترام ويغلو الفقيه العبد كل الغلواء فى دعوى الاباء وحرية الآراء ، وبقدر ما يتطلب من الغطاء يحدث من الضوضاء . وكلما ذلت النفس استحكم مركب النقص ، فكبرت الدعوى وكثرت الأستار .

ما أتعس هذا الفقيه لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكيره فى هواه أو هوى مولاه .

هنالك لا تجد الأشياء ولكن ظلال الأشياء . ولا تسمع الأصوات ولكن تسمع الأصداء . وتجد حسابا لما ليس فى الحســاب . المعلوم يتحكم فيه المجهول ، والعلل ينتجها المعلول ! وأسماء تعود المظلومون أن يسمعوها . كالمصلحة العامة والنظام وما هى الا نهمة الدنيا وهماهم العيش وفســاد الضمير .

هنالك تشهد الفقيه العبد فى شوهته ودمامته وانحلال شخصيته كالممثل الهزيل فى أعقاب الرواية هدته الذبذبة الدائمة وقبحه الاصطناع . فأمسى مسخا شائها ترى دمامته كل الأنظار وهو لا يكاد يراها .

هنالك الأرضى يحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء .

هنالك تسيطر الأفكار التجارية ونزعات السوقة ، ويتحالف أهل الرذيلة على أهل الفضيلة ويأخذك العجب وتساءل : لماذا يتواصل أهل الرذيلة فى حين أن ذوى الفضل فى أبراجهم لا يتواصلون .

هناك النفوس الرديئة تحاول أن تطرد النفوس الجيدة . ويتعامل رجال الحكم ورجال العلم بقانون العرض والطلب ، والفضة ، والذهب ، والمصلحة

فى شتى صورها وعروضها ، كالوظيفة والرضاء ، والحياة الوادعة الساجية ، وما هى الا رشى مستورة من رغبة ورهبة أو منظورة ذات لمعان ورنين .

رووا أن قاضيا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه فوقعت قضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى ، فأرجأ القاضى القضاء فيها حياء من جماعتهم . وردفته قضية أخرى كتب بها الى يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له : لا أشير عليه بشىء . فلما انصرف اليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فوره الى يحيى وقال له : لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضى له غدا ان شاء الله . فقال له يحيى . « وتفعل ذلك صـــدقا ؟ » قال : نعم . قال له « فالآن هيجت غيظى . فانى ظننت اذ خالفنى أصحابى أنك توقفت مستخيرا لله ، متخيرا فى الأقوال . فأما اذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضى مخلوق ضعيف فلا خير فيما تجىء به ولا فى ان رضيته منك ، فاستعف من ذلك ، والا رفعت فى عزلك » .

فرفع يستعفى فعزل .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه قاضيا ممن عناهم « فولتير » بقوله عن قضاة « كالا » : لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة . بل قاضيا ممن توعدهم عمر بقوله « ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء ، يوم يلقونه الا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه » .

ليس أبو حنيفة هذا القاضى ولا ذلك الفقيه : لقد قال له الأمير يوما لم لم تغشنا ؟ .

فقال : لأنه ليس عنـــدى ما أخافك عليـــه وان قربتى فتنتنى وان أوصيتنى أخزيتنى .

والذى يقول هذا للأمير هو الذى يقول للناس : « من كرمت عليـــه نفسه هانت عليه الدنيا وكل شدة فيها » .

لقد عاش حياته في ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه اما أن يموت ميتة تليق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاما ليست طويلة في أقيســة الزمان ولكنها عريضة الذكر عميقة الأثر ، رفيعة المثل ، والحياة لا تقاس بالطول بقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع المقام والفعال النابه .

ولقد قضى حياته يفرق في الناس أرباح تجارته النافقه آلافا وعشرات آلاف ، آخذا نفسه بالتجرد اليومي من أعراض الدنيا في زهادة ونســك وتعليم دونها الزهد كله والنسك كله والتعليم كله ، والذي يسلط على نفسه هذا التجريد اليومي من نعيم الحياة انما يسلط عليها سياط عذاب مستمر لا بالكف عن اللذات ولكن بالاقتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلي لا النظري . حرمانا مما في يده فعلا وهوله . لا مما في يد الناس ، ولا فضل عن الناس ، لمن تنازل عما في يد الناس ، فانما هو يكسب لشخصه اذ يبرىء نفسه من أذى نفسه . أما من صبر على الامتحان اليومي ، وقدر على التطهر الكلي ، فقد سما بالوجود الانساني عن مستواه البشري ، وأضحى ينظر الى الدنيا من عل ، ويدق من قرب أبواب السماء . ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوى تلك النفس التي سمت على أنفس الناس جميعا .

وكما جمع العبادة والزهادة ، قرن العلم بالعمل . فاذا رأى المنكر غيره بيده . يرى الشرطي يسخر رجلا ويذهب ليخلصه ويمتنع الشرطي فيبطش به ويدفع الناس الشرطي حتى يطلق الرجل .

ويرى أمير الكوفة خالد بن عبد الله القسري يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بقراءة كتب حتى يخشى على الصلاة فيصيح : الصلاة الصلاة . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطي ومع الأمير القسري وهو شأنه مع ابن هبيرة أمـــير العراق وهو هو شأنه مع المنصـــور أمير المؤمنين . لا ينحني أمـــام السلطان في أي مكان ، ولا يسمح بالعيب في ذات العلم ولا يسهم في الظلم كالشيطان الأخرس بالسكوت .

كان قد فرغ من شؤون مدرسته وفتح البـــاب على مصراعيه لشتى المدارس التى أظهرت فقه الاسلام ، فسلط على الفكر الاسلامى شعاعا من النور هو حسبه . وخلف فى دنيا الفقه اسماء راسيات كأنها الأعلام ، وقضاة كالملوك ، وعلماء أثبت مجدا من الملوك . فلم يك باقيا ، الا أن يضرب الضربة الكبرى فيهوى بالمادة ، وأعراضها وأصحابها الى الأعماق، ويحلق بالعلم وبالفكر فى طباق السموات ، ونطير الى الأجيال اللاحقة فكرته الخالدة عى ألف جناح . ويعلم الناس بالقدوة والفداء مثل ما علمهم بحياته .

وفى كلمة واحدة يعلمهم بمماته مثل ما علمهم بحياته .

لكنه لا يموت ميتة « ليكرج » اذ أتم رســالته فى شرائع أسبرطة ومجدها فختم حياته منتحرا بالكف عن الطعـــام اعتقادا بأن الزعيم الذى لم يبق له عمل فى أمته جدير بالاختفاء .

ولقد كانت الأمة أحوج ما تكون الى امامها الأعظم ، ولم تشأ السماء أن تعطل خاتمة حياته من أكليلها . اذا لم يدخل النـــاس فى حسبانهم هذا العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه فى اللوح المحفوظ ذلك المصير . الأذى هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر ، والمعارضة هى فى الغالب رجع الصدى للرأى . فأى أذى واعتراض يجتمعان على الرجل اذا اجتمعت عنده الحرية والرأى وأى امتداد لذلك التناوش من بعيد ومن قريب يخالفه عند مماته بعد خمسين عاما فى معركة الحق .. فى مواجهة الناس ومجابهة الخليفة ! وكلما لقى من أمره عسرا تدفق من قلبه الاشراق لا الاحتراق ، كأن الشدائد مولد عظيم للقوى فى كيانه ، أو كأنها السلاح الذى يشق الأرض لتفجر الماء أو ليزداد الثرى بتقليبه ثراء ! !

انما يعيش هؤلاء البشر فى مستوى أعلى من البشر . يتلاقى عنـــده الانسانى المحلق والربانى الذى يوحى به ، وفى هذه القمم الشواهق يستقبل الملهمون آيات السماء أول من يستقبل كأطراف الســحاب فى السماء وذرا الجبال فى الأرض أسبق ما يتلقى شعاع الشمس وأول ما يتوهج فى الظلام المحيط .

انهم لا يحسون ما نحسه عذابا ، بل تتوتر أحاسيسهم الى أقصى حدود التوتر اذا عالجوا الصعاب ، وتتبلد الى حد العدم فى محيط العذاب ، فاذا رأو الأذى وردوه ، واستروحوه ، فمنهم من يقضى نحبه ومنهم من ينتظر ، فلا تطيب نفسه الا اذا أترعته كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد ارتوى من نخب الخلود .

انها لنعمة من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوما كأنهم من أهل السماء فهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوة الحسنة أن الحياة ليست البلهنية ولا الرفاهة . ولكنها كفاح دائم للخير تواق للكمال .

وسجل علماء الاسلام هذه الحقائق بحروف من نور فقضى عليهم بارئهم أن يشقوا لينعم البشر — فكان خلقا اسلاميا خالصا وقضى على الأئمة الأربعة أن يردوا المحنة تلو المحنة فى سبيل آرائهم ويسبقوا بامامتهم الناس وتحملوا خطاياهم . سيق الشافعى من أقصى الجزيرة الى أقصاها ، عاشر عشرة متهمين بالتشيع لقوا مصارعهم على عينه ونجا وحده ، وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة . وذاق ابن حنبل بعض الموت فى خلق القرآن . أما أستاذهم أبو حنيفة فقد مات فى قضية القضايا : قضية الحرية ! أو قضية القضاء .. أو قضية تسخير العلماء فى خدمة الخلفاء ! فأظهر أن الزهد والعلم ليسا غاية الحياة وانما العمل هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة وكان المثل الحق لما يهدى اليه الوحى الذى أشاروا اليه من « أن الله سبحانه أوحى الى نبى من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيـــا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك الى فقد اكتسبت به العز . ولكن ماذا عملت فيما لى عليك ؟ فقال : يارب وأى شىء لك على ؟ قال : هل واليت فى وليا أو عاديت فى عدوا » .

انما تكون العبادة الحق بالجهاد للحق فى الخطوط الأولى للنار لا فى الرهبنة ولا فى الاعتزال . رووا عن الامام أحمد وغيره أثرا « أن الله سبحانه وتعالى أوحى الى ملك من الملائكة . أن اخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال : به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه فى قط ! » .

بلى . بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطلق العبادة ! هذا يحيى بن عمر يرجع من القيروان فى تونس الى قرطبة فى الأندلس ليرد دانقا كان عليه وهو يقول : رد دانق على أهله أفضل من عبادة سبعين سنة !

انها ضريبة الرضاء النفسانى يؤديها الزاهد أو العابد أو العالم يكد ويكدح ليترك آثاره فيمن يحيط به من العالمين .

واذا كان أبو حنيفة قد جانب السياسة فى حياته لأن رسالته كانت أكبر من السياسة ، فقد جانبها وهو يختتم هذه الحياة ، لأن العالم الحق لا يفتتن بما يفتتن به الناس ولا يلقى بذاته كرجال الدولة فيما هم فيه يعتركون ان رجل الدولة ، ليقذف بنفسه فى المهالك يهنه أن يفور التنور وتغلى به القدور ، ليستخرج ما يشاء من معقبات ونتائج .

فاذا هاجم البطش المفكر فى عقر داره ، أو فدح الخطب وعمت البلوى أو هددت الحرية أو الفضيلة ، حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته ويحمى حماه . انه لم يعد العالم ولم يبق الفقيه وانما غدا القدوة .

ان هؤلاء الفقهاء يحملون من التبعات ما لا يحمل الساسة ولا الزعماء ، لما يستيقنه ، الناس من أنهم ورثة الأنبياء ، فلا جرم اذا التمسوا النجاة عندهم والأمل فى روح الله لديهم .

لما والى الملك اسماعيل الافرنج أيام الحرب الصليبية وسلم لهم صيداء وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله ثم بعث اليه يعده ويمنيه ، فقال له الرسول « تعاد اليك مناصبك وزيادة ، وما عليك الا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده » . فما كان جواب الشيخ الا أن قال « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد .. » .

سبق أبو حنيفة فضرب الأمثال للعلماء كما سبقهم فى ميدان الاجتهاد ، فواجه النوازل فى الفكر بالفكر ، والنوازل فى العمل بالعمل .

اختارت له السماء مجد الخلد على مجد الساعة ، ورضاء الله على رضاء

السلطان ، وآثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن. واتخذ مكانه فى هذا الثبت الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء .

هنالك تتراءى لك الأعماق التى ينبع منها فكر هذا المجاهد الحر ، خلابة للبصر ، وتتجلى لك القمم العالية التى ارتفعت اليها هذه الحيـاة عند ما ختمتها يده القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويتراءى لك فيما بين البداية والنهاية حياة هى العمل ، ورسالة هى الخلق والابتداع ، ليست فى تطبيقات كل يـوم ، تلك التطبيقـات الدارجة ، والفتاوى المفردة ، أو فى خـدمة السلطان .

انما كانت وظيفة أبى حنيفة وظيفة الشارع نفسه ، لا وظيفة الذى ينفذ الشرائع . والقضاء تنفيذ والتشريع خلق . والمشرع يضع النظام . والقاضى من حرسته وسدنته .

كانت وظيفة الامام الأعظم تتصل بالقرآن وبالحديث وبالعقل لاستنباط الأصول والحلول ودفعها فى الغداة الى القضاة والعلماء والحكام والخلفاء والناس كافة يتناولون بها جميعا شؤون الدنيا والدين ، ويقضى بها القضاة فى كل قضية وكل دولة ، وكل جيل ، وكل مكان .

كانت رسالته انشاء المذاهب وانشـاء الرجال ، والتوثيق بين العلم والحضارة .

كان هو نفسه الانبعاث التاريخى الذى خلد به الفقه الاسلامى نفسه . فأين منه ، بل أين من بعض منه ، كراسى القضاء . على ما فى وظيفة القضاء من اشراق وكرامة وعبادة .

لقد ساهم التاريخ فى توكيد تلك الحقائق . فلم يل وظيفة القضاء فى خدمة السلاطين واحد من الأئمة الأربعـة الذى تقاسم مذاهبهم جمهـور المسلمين .

تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال « ان العلماء يحشرون مع الأنبياء وان القضاة يحشرون مع السلاطين » .

أجل وكما قال أبو حنيفة « ان لم يكن أوليـاء الله تعالى فى الدنيا والآخرة العلماء فليس لله ولى » .

واذا كان ذلك شأن العلماء فكيف بأئمة العلماء ، بل كيف بأحق رجل فى الاسلام بما قيل عن أرسطو « معلم العلماء » .

فأين . أين .. أين الأمراء من الأنبيـاء . وأين رجال القضـاء من الفقهاء !

أين أبو حنيفة قاضى القضاة ، أو قاضى الكوفة ، أو بغداد أو الرصافة ، او قدر وكان ، من الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ؟ .

لقد دالت دولة بنى العباس ، ولم يذهب مذهب أبى حنيفة . ونسى الناس أبا جعفر وأولاده وأحفاده . لكن اسم أبى حنيفة ما يزال يذكر كلما صلى الناس أو صاموا بل كلما وابهوا أمرا من أمور الشرع فى شأن من شئون الدنيا أو الدين .

* * *

أحس أبو حنيفة بالموت فسجد فصعدت روحه وهو ساجد فى رجب سنة ١٥٠ . كأنما كان يسابق ملك الموت الى لقاء الله فى الصلاة .

جاءته الدعوة الى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى ، وبين يدى التاريخ وهو سجين ، وبين يدى الفكر الانسانى وهو يتلقى العذاب من جرائه !

وأخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به الى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضى بغداد . وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال « رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة . كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبرت اذ قبرت الى خير وسنة وأتعبت من بعدك » .

وما فرغوا من غسله الا وقد اجتمع من أهل بغداد خلق كثير لا يحصيهم الا الله تعالى ، حتى خـرج من باب خراسان ، كأنمـا نودى لهم بموته ،

فاجتمعوا وحرز من صلى عليه فقيل بلغوا خمسين ألفا ، وقيل أكثر وأعيدت الصلاة عليه ست مرات . وقيل ان المنصور جاء وصلى على قبره ، ولم يمكن دفنه الا بعد العصر لكثرة الزحام .

ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوما ولما بلغت المنصور وصيته بأن يدفن بالخيزران لأنها أرض طيبة غير مغصوبة قال « من يعذرني فيك حيا وميتا .. ! » .

وقال الحسن بن عمارة على القبر « كنت لنا خلفا ممن مضى . وما تركت بعدك خلفا . ان خلفوك في العلم الذي علمتهم لم يمكنهم أن يخلفوك في الورع الا بتوفيق » .

وأتى نبأ موته مكة ، فرثته البلدة المباركة على لسان فقيهها ابن جريج فاسترحم وتوجع ثم قال « أي علم ذهب ! » .

ولما وقف تلميذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال « رحمك الله . مات ابراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وخلفا خلفا ، ومت أنت ولم تترك على وجه الأرض خلفا » وبكى بكاء شديدا .

وفي منتصف القرن الخامس للهجرة (سنة ٤٥٩) بنى شرف الملوك أبو سعد محمد بن المنصور الخوارزمي (مستوفي مملكة عضد الدولة البارسلان محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلجوقي) على قبر الامام مشهدا وقبة وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وبقي قبره مزارا للناس في طريقهم للحج وعودهم منه . ودفن الى جواره جماعة من نخبة العلماء ، منهم الدامغاني شيخ العراقين وقاضي بغداد .

ولما دخل الشافعي بغداد قصد الى مقابر الخيزران وصلى على قبر الامام الأعظم ركعتين ولم يرفع يديه — فسئل لماذا خرج عن قواعده ؟ فقال رضي الله عنه « أدبا من هذا الامام أن أظهر خلافه بحضرته » .

وكان يجيء الى قبره كل يوم ويقول : اني لأتبرك بأبي حنيفة .

بلى ، وأية بركة أصابت الشافعي وأصابها الاسلام ، أما الشافعي فقد

تلقى فقه أبى حنيفة مبوبا مؤصلا مقعدا ، كما يتلقى الجوهرى الصناع كنزا من اللآلىء والأعلاق . وأما الاسلام فهو يذكر لأبى حنيفة ما لا يذكره الا لمن جاء بعد النبى عليه الصلاة والسلام من صفوة الطبقة الأولى من صحبه المخلصين .

فالفقه الاسلامى فى المعاملات أو العبادات أغلى كنوز الحضارة الاسلامية مكانة وأبعدها أثرا فى الأمة جيلا بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث فى منابعه الأولى . ولئن كان للغة العربية وآدابها — وهى لغة القرآن — ذلك الشأن الجليل الذى تفاخر به كل اللغات : فان للفقه منها مكان الصدارة .

هو الذى مكن للحضارة الاسلامية فى بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا ، وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الاسلامى ، وسيطرت مبادئه فى نظام الأسرة والملكية والحرية فى الرأى والعقيدة والأصول العامة للشريعة .

ولئن غزا الاسلام هذه الأمم بالسلاح ، فقد استقر فيها بالشريعة .

لقد غلب السلاجقة المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى ولكنهم أسلموا . وغلب المغول المسلمين فى القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضا .

ان الاسلام ينتصر وان هزم المسلمون !

وحيث وجد الاسلام وجد الفقه الاسلامى ووجد الفقهاء العالميون فى غير جزيرة العرب ممن سجلوه وخلدوه . يتسابقون فى حلباته ذلك السباق المترامى فى حدود الوجود الزمانى والمكانى ، حتى اذا أقفل باب الاجتهاد فى عصور التقليد لم يسكت لهم صوت ولم تهدأ لهم حركة ولم يبرح انتاجهم يثير الاعجاب .

ولو عجز الفقه الاسلامى عن أن يستجيب لحاجات الأمة فى هذه الأقطار المترامية لخيف أن تعمد الى اطراحه لتعيش . واذن لبخعت الحضارة الاسلامية نفسها فى كل مكان !

فأى فضل على الأمة يلقى به ربه ويلقى به التاريخ رجل مكن للفقه الاسلامى أن يكون عصريا فى كل عصر . واقليميا فى كل اقليم ، فمكن للدين نفسه ووطد أركانه .

لا عجب ان قال بعضهم ان النبى قد بشر به . فهو ان صح أو لم يصح ضرب من ضروب التمجيد وهو جدير بالتمجيد . جدير بتفسير المفسرين لحديث (لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس) وغيره ، تفسيرا ينظمه فى سلك المأمولين للاصلاح .وجدير بما قال بعض أئمة الزهد (يجب على أهل الاسلام أن يدعوا لأبى حنيفة فى صلاتهم لحفظه عليهم السنة والفقه) .

لقد كان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال للمسلمين (اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد) وكان عمر مؤمنا ممن عناهم النبى بقوله (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) .

فلقد جعل النبى عمارا وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان الأمة كأبى بكر وعمر .

واذا كان أبو بكر قضى على الردة ، وكان عمر أنشأ الامبراطورية الاسلامية فان رسوليه الى العراق — عمارا وابن أم عبد — قد أديا رسالتهما نعم الأداء ، كأنما بصر الرسول والفاروق ورسولا الفاروق من خلال السنين بما سيؤديه هذا الاقليم العظيم للعالم الاسلامى فيحفظ له أمانة الفقه ويشيع فى أرجائه الأسلوب الجديد ويحمى الشريعة الاسلامية من أن تصيبها آفة القصور عن مطالب العصور .

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الاسلام من الردة عند الصيحة الأولى على هدى من أبى بكر ، ان أبا حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة الأولى اذ نادت بذلك الحوادث وهو على هدى من عمر وعهد من ابن مسعود .

ولقد نظر ابن مسعود بنور الله يوم ضرب الأمثال فى الاجتهاد عند

أساطين مسجد الكوفة ليئول مجلسه بعد قرن كامل الى أبى حنيفة الذى نهج نهجه وورث عهده ، ذلك العهد الذى أوصى به الرسول .

نفحات من السماء جاءت بأبى حنيفة فى أوانه ، كما جاءت بابن الوليد فى ابانه ، لتؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى صدق وعده ووفى عهده (.. انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

فى سنة ١٥٠ مات أبو حنيفة وولد الشافعى ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم الأرض ذلك الامام الا اذا حبتها هذا الامام .

كان نابليون يقول عن نفسه (كل شىء ينتهى على بعد ستة أقدام تحت الثرى) ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا انه لا يصدق على المفكرين . فأولئك يبدأ كل شىء بالنسبة لهم عند ذلك . انهم يذرون أجسادهم تحت الثرى ويبعثون أفكارهم الى الأفلاك ، وأسماءهم الى الأزل ، لتصير حديثا فى فم التاريخ وطنينا فى سمع الزمن . أو كما قال هيجو : أيها العظماء : هل تريدون المجد ؟ .. موتوا !

استقبل أبو حنيفة وهو سجين فى السبعين من عمره ، حياة الخلود كما استقبلها سقراط من قبله بعشرة قرون ، فى السبعين من عمره ، محكوما عليه بالاعدام ، فنظر الى قضاته وقال (.. سيذهب كل منا فى طريقه ، أنا فى طريقى لأموت ، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا) .

الفهـــارس

فهرست المراجع المهمة

١ — مناقب الامام الأعظم .. .. الموفق بن أحمد المكى

٢ — مناقب الامام الأعظم .. .. ابن البزاز الكردى

٣ — عقود الجمان فى مناقب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان .. .. الحافظ محمد بن يوسف بن على ابن يوسف الدمشقى الصالحى

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت ن ١٠٧

٤ — الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان .. .. .. ابن حجر

٥ — الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء .. .. للحافظ أبى عمر يوسف بن عبد البر

٦ — تاريخ بغداد .. .. أبو بكر الخطيب

٧ — الرد على أبى بكر الخطيب .. الملك أبى المظفر عيسى بن عبد الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب

٨ — تأنيب الخطيب على ما ساقه فى أبى حنيفة من الأكاذيب محمد زاهد بن الحسن الكوثرى

٩ — احقاق الحق بابطال الباطل فى مغيث الخلق وأقوم المسالك فى بحث رواية مالك عن أبى حنيفة ورواية أبى حنيفة عن مالك .. .. محمد زاهد بن الحسن الكوثرى

١٠ — حياة الامام أبى حنيفة .. .. الأستاذ سيد عفيفى

١١ — الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى .. .. الحجوى

١٢ — وفيات الأعيان .. .. ابن خلكان

١٣ — الفوائد البهية فى تراجم الحنفية .. .. اللكنوى

١٤ — طبقات الفقهاء .. .. أبو اسحق الشيرازى

١٥ — طبقات الشافعية الكبرى .. السبكى

١٦ — الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب .. .. .. ابن فرحون — المالكى

١٧ — نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة .. .. أحمد تيمور باشا

١٨ — فجر الاسلام .. .. أحمد أمين بك

١٩ — ضحى الاسلام .. .. أحمد أمين بك

٢٠ — تاريخ التشريع الاسلامى .. الخضرى بك

٢١ — تاريخ التشريع الاسلامى .. الأساتذة عبد اللطيف السبكى ومحمد على السايس ومحمد يوسف البربرى

٢٢ — تاريخ الفقه الاسلامى .. .. دكتور على حسن عبد القادر

٢٣ — الموافقات فى أصول الشريعة الشاطبى

٢٣ — اعلام الموقعين .. .. ابن القيم

٢٥ — مجموعة رسائل «فقه حنفى» مخطوط ن ٧٣٢ دار الكتب المصرية .. .. مفتى زاده

٢٦ — مجموعة رسائل «فقه حنفى» مخطوط ن ٣٢٨ دار الكتب المصرية .. .. عبد الغنى النابلسى

٢٧ — رفع الملام عن الأئمة الثلاثة الأعلام (دار الكتب المصرية) ابن تيمية

٢٨ — رسالة فى مدى استعمال حقوق الزوجية .. .. دكتور السعيد مصطفى السعيد

٢٩ — علم أصول الفقه .. .. الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٣٠ — الاسلام وأصول الحكم .. الأستاذ على عبد الرازق

٣١ — السياسة الشرعية .. .. .. الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٣٢ — السياسة الشرعية .. .. .. الأستاذ محمد البنا

٣٣ — الفقه على المذاهب الأربعة طبعة وزارة الأوقاف.. .. .. الشيخ عبد الرحمن الجزيرى

٣٤ — رد المحتار على الدر المختار ابن عابدين

٣٥ — المجموع شرح المهذب .. .. محيى الدين بن شرف النووى

٣٦ — مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى.. .. .. الأستاذ أحمد بك ابراهيم

٣٧ — مجلة القانون والاقتصاد السنة الثانية .. .. دكتور محمد كامل الغمراوى

٣٨ — مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة .. .. الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة

٣٩ — مجلة القانون والاقتصاد السنة السادسة .. .. الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٤٠ — مجلة القانون والاقتصاد السنة السابعة .. .. الأستاذ عبد الوهاب خلاف

٤١ — The moslem Creed. Wensinck. Cambridge 1932

٤٢ — Le Dogme de l'Islam. Godziher - Paris 1920

٤٣ — شرح الأحكام الشرعية .. محمد زيد الأبيانى بك

٤٤ — الخراج .. .. أبو يوسف

٤٥ — الفهرست .. .. ابن النديم

٤٦ — تاريخ الطبرى .. .. الطبرى

٤٧ — تاريخ الدولة العباسية .. .. محمد الخضرى بك

٤٨ — تاريخ الاسلام .. .. حسن ابراهيم حسن

٤٩ — الطبقات الكبرى .. .. ابن سعد

٥٠ — فلاسفة الاســلام فى المشرق والمغرب .. .. محمد لطفى جمعة

٥١ — الامامة والسياسة .. .. ابن قتيبة

٥٢ — الــكتاب والوزراء .. .. .. الجهشيارى

٥٣ — العقد الفريد .. .. لابن عبد ربه

٥٤ — دائرة المعارف الاســلامية ..

٥٥ — دائرة معارف البستانى .. ..

٥٦ — الأمالى .. .. أبو على القالى

٥٧ — المقدمة .. .. ابن خلدون

٥٨ — Islamic Civilisation Khuda bukch University of Calcutta 1929

٥٩ — الحيوان .. .. الجاحظ

٦٠ — مناقب الامام الشافعى .. .. محمد بن عمر الرازى

٦١ — القضاء فى الاسلام ابن عرنوس

فهرست